دورية تصدر كل شهرين

مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

السنة الثالثة عشرة / (مارس - أبريل) ٢٠١٨

65

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | March - April 2018

الرجاء

محبوسةٌ تلك البسيطةُ في سياجٍ من جَفافْ
وبها جَفاءٌ، والمساوئُ حوْلَها قَيْدُ اصطفافْ
مَنْ في المشارق والمغارب هُمْ ضحايا بائسونْ
لا حصْر يشمَلُهُم، ولا مَنْ في المظالم عابثونْ
هذا أنينٌ من عبادٍ تحت نَيْرِ الظالمينْ
رفعوا الأكفَّ إلى الإله دامعين وضارعينْ

***

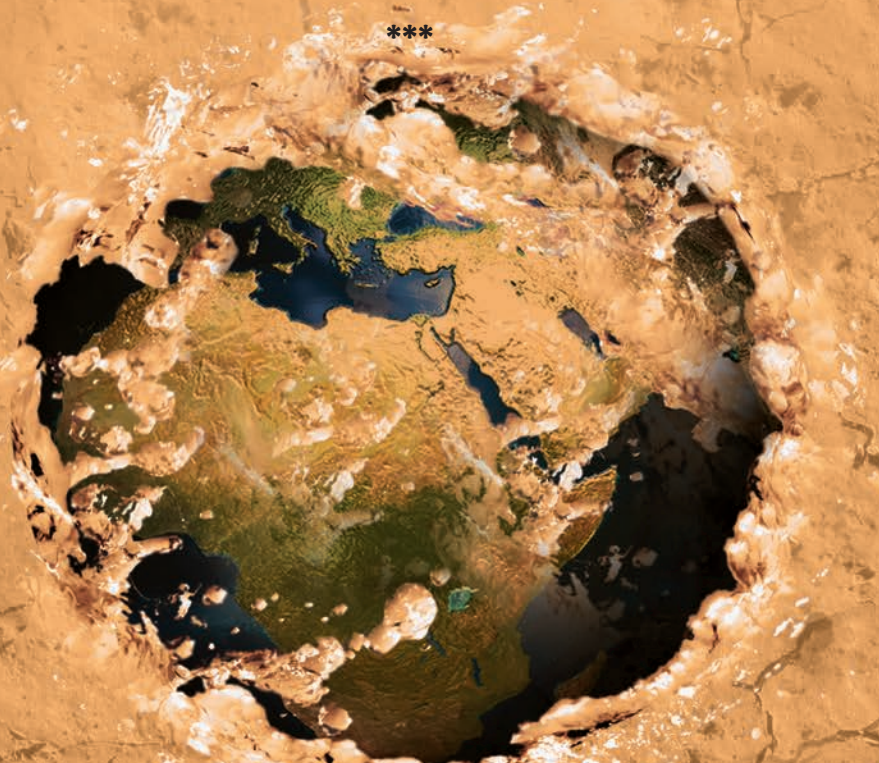

٢ تعالوا نتحدث بقلوبنا
فتح الله كولن

٣٦ حيوانات تستشعر الزلازل
أ.د. عاطف يورلماز

١٨ مركزية الإنسان في البناء الحضاري
د. حفيظ اسليماني

كوكبنا المسكين

من أعظم المعضلات التي تقضّ مضاجع العقلاء على نطاق الكرة الأرضية وفي عالم المسلمين على وجه الخصوص، فشلُنا في تقبّلنا لاختلافاتنا، مهما كانت هذه الاختلافات، دينية كانت أو ثقافية أو عرقية. لا نريد أن نتقبّل أننا مختلفون، وأننا سوف نبقى مختلفين. هذا مأزقنا الحقيقي، ولا سبيل للخروج منه سوى التحلي بـ"نضج حضاري" يمكّننا من تقاسم الحياة وإثراء ثقافة العيش المشترك فيما بيننا.

ولم يعد هذا الأمر ترفًا، بل بات حاجة ملحة وقضية وجودية، لا سيما إذا عرفنا أن الإنسان اليوم يمتلك من الأسلحة ما تمكّنه من تدمير الكرة الأرضية مائتي مرة. فلا خيار أمامنا -سكان الأرض- إلا أن نجيد التعايش، طبعًا إن كنا نريد للحياة أن تستمر على هذا الكوكب. ومن ثم يأتي مقال المفكر الكبير فتح الله كولن في مستهل هذا العدد دعوة في الصميم حينما يقول "تعالوا نتحدث بقلوبنا"، إذ لا مناص -إن أردنا أن نعيش على الأرض بسلام- من تحكيم لغة القلب ونشر ثقافة الحب، بدلاً من لغة المصالح والبراغماتية القاتلة.

وفي سياق متصل يسلِّط الشريف حاتم العوني الضوء -بأسلوب ذكي- إلى العبقرية الفذة التي يتمتع بها بعضنا في تفتيت مجتمعاتنا إلى فِرَق وجماعات متناحرة في مقاله "الوصايا العشر لتفريق المسلمين باسم الإسلام". في المقابل يؤكد الدكتور حفيظ اسليماني على معنى جوهري ما زالت حراء تلح عليه منذ عددها الأول هو "مركزية الإنسان في البناء الحضاري".

لقد أفسحت حراء في هذا العدد مجالاً لخمس مقالات قيمة في العلوم لكي تثري معلوماتنا، وتعمّق نظرتنا، وتدرّبنا على قراءة الكون والحياة من مناظير مختلفة؛ "لغة الطير والحيوان"، "الإلهام في عالم الحيوان"، "حيوانات تستشعر الزلازل"، "جائزة نوبل في الكيمياء وإسهامات المسلمين" سوف تضيف معارف مثيرة على ثقافتنا العلمية.

مقال "بولندا.. أو حين تنتج الأزمة مشروعا" لعثمان أقجه قصة نجاح مختلفة، تنبهنا إلى أن أحلك الظروف قد تحمل في طياتها أعظم الفرص إن لم نستسلم لليأس وكان لنا حلم نؤمن به ونعيش من أجله ونسعى إلى تحقيقه. أما السنوسي محمد السنوسي فيطير بنا إلى "الجامعة مختبر الحياة" ويقدم لنا نصائح ذهبية لاستثمار الفترة الجامعية. ويسلّط الدكتور ناصر أحمد سنه الأضواء على "مرحلة الشباب الباكر كيف نتعامل معها؟" وهو موضوع -لا شك- في منتهى الأهمية والخطورة. والدكتور محمد جكيب يغوص في أعماق "دلالات خطاب كولن في حواراته الإعلامية" مقدِّمًا لنا دراسة نموذجية في تحليل الخطاب. ويؤكد الكاتب القدير بلال حسن التل في مقاله "مفتاح الإصلاح" على أهمية التعليم ودوره المركزي في الإصلاح، مستشهدًا بمدارس حركة الخدمة بناء على دراسات ومعطيات ميدانية، إلى جانب مقالات أخرى لا تقل أهمية عمّا استعرضناه.

كما نتوجه بالشكر الخاص للأديب والشاعر محمد حجاج على لمساته الفنية الراقية في "ألوان وظلال" من هذا العدد. ونشيد بتواصل قرائنا الأوفياء معنا، ونرجو أن يظلوا متفاعلين معنا عبر موقعنا على الإنترنت، وصفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي، حتى نفيد من تجارب بعضنا ونتعاون على تطوير أنفسنا ومجتمعاتنا معًا. ■

المحتويات

تعالوا نتحدث بقلوبنا / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
الوصايا العشر لتفريق المسلمين باسم الإسلام / د. الشريف حاتم العوني (قضايا فكرية)	٦
مسطور القدر / حراء (ألوان وظلال)	٨
لغة الطير والحيوان / خلف أحمد أبو زيد (علوم)	٩
دلالات خطاب كولن في حواراته الإعلامية / د. محمد جكيب (تحليل كتاب)	١٣
مركزية الإنسان في البناء الحضاري / د. حفيظ اسليماني (قضايا فكرية)	١٨
عجز الإنسان / د. لطف الله خوجه (قضايا فكرية)	٢٢
جائزة نوبل في الكيمياء وإسهامات المسلمين / صالح القاضي (علوم)	٢٥
الإلهام في عالم الحيوان / د. محمد السقا عيد (علوم)	٢٨
إنما أنت ممر / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
رجال أمن الحضارة الإنسانية / حمزة الشافعي (قضايا فكرية)	٣٤
حيوانات تستشعر الزلازل / أ.د. عاطف يورلماز (علوم)	٣٦
مفتاح الإصلاح / بلال حسن التل (قضايا فكرية)	٤٠
ثلاثة أعوام في حضرة القدس / صلاح عبد الستار الشهاوي (تاريخ وحضارة)	٤٤
نبوءة العرَّاف / د. حسن الأمراني (شعر)	٤٨
أقسى من الجماد / أبو الصهباء الأزهري (قضايا فكرية)	٤٩
هل للروائح لغة؟ / د. عبد الدائم الكحيل (علوم)	٥٢
هطول / حراء (ألوان وظلال)	٥٤
بولندا.. أو حين تنتج الأزمة مشروعا / عثمان أقجه (تربية)	٥٥
بين الزيف والحقيقة / حراء (ألوان وظلال)	٥٨
الجامعة مختبر الحياة / السنوسي محمد السنوسي (تربية)	٥٩
مرحلة الشباب الباكر كيف نتعامل معها؟ / د. ناصر أحمد سنه (تربية)	٦١

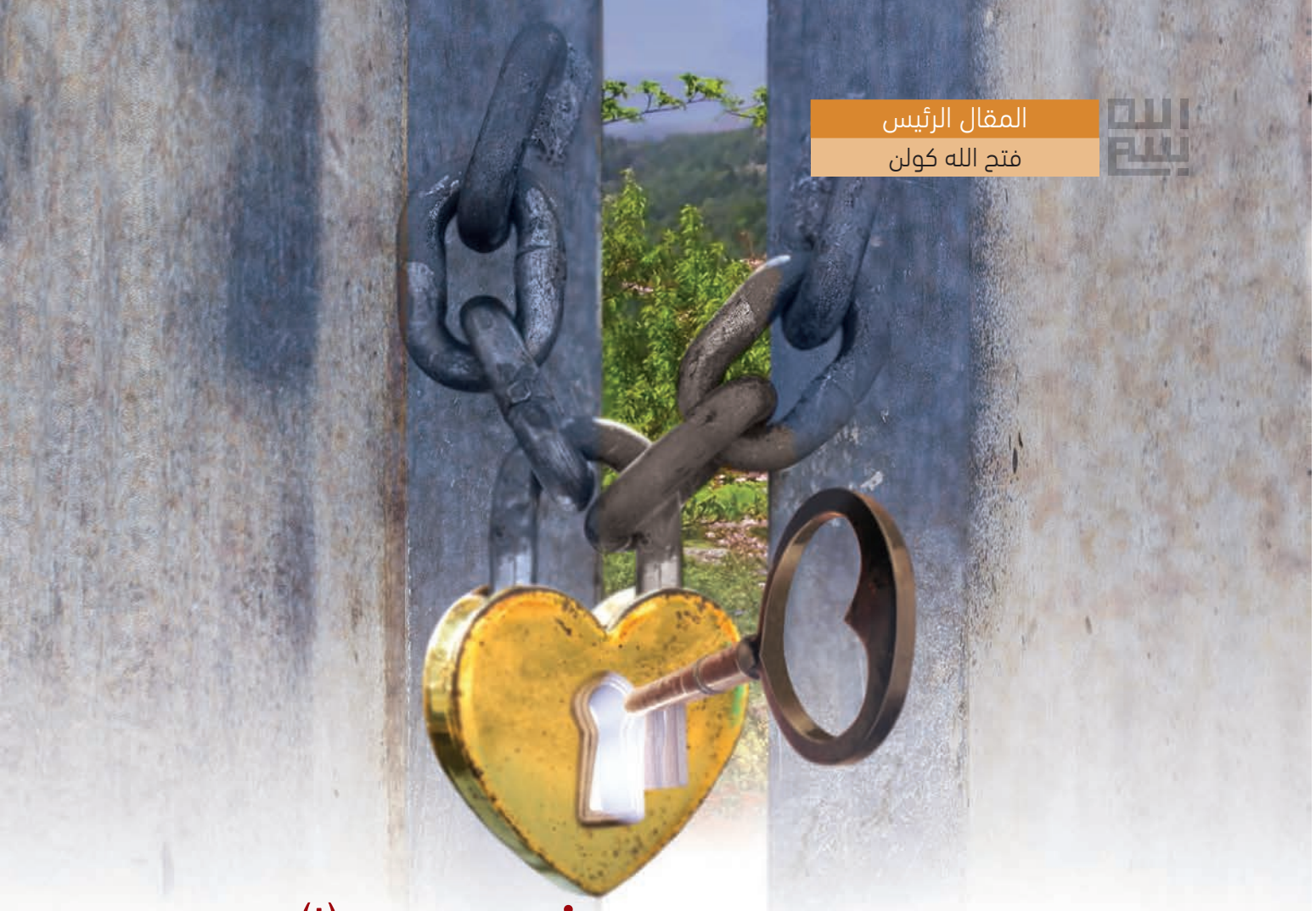

تعالوا نتحدث بقلوبنا(١)

بين القلوب دروب ومسالك خفيَّة لا تُعدُّ ولا تحصى، تمتد فيما بينها في انحناء وتداخل لا ينتهي. ولكل إنسان درب خاص يسير فيه، وأفق ذاتي يحلِّق في أجوائه، وبين هذا وذاك يتقاطع مع كثيرين أو يتوافق بقصد أو بغير قصد مرات عديدة، وتقابله مفاجآت لم تكن في حسبانه. ولهذا الإنسان أيضًا أهداف عددَ الحقائق النسبية المبثوثة في الوجود، وحتى يرتقي إلى تلك الأهداف ويبلغها، عليه أن يعبر جسورًا ويرتقي سلالم ومعارج شتى. لكن الطبائع السمحة التي نمت ملكاتُها الإنسانية وتفتَّحت، والنفوس التي تحترم القيم العالمية، تمضي نحو سماء حقائقها النسبية دون أن تزاحم أحدًا أو تشتجر مع أحد أو تشوه صورة أحد.. تمضي دون أن تعترضها عوائق السير. في عالم هؤلاء لا يتعلق اختلاف الألوان والأشكال والثقافات والأفكار والتصورات إلا بالمظاهر السطحية فحسب.

في أعماقهم حيوية صامتة لا تفتر، وحركة متوازنة لا تختل، ونشاط متناغم كقافية الشعر، يضربون مثلاً أعلى في السكينة والسلام يثير غبطة الناظرين. إنهم كالبحار العظيمة، تعلو سطحَها أمواج تلو أخرى، ترغي وتزبد ثائرة هائجة، ترتفع وتهبط هادرة مزمجرة. ووسط هذا الصخب والتلاطم يختلط اللون الأخضر بالأزرق باللازوردي؛ أجل، يطفو على سطحها بعض الاختلاف والتباين، ولكن حينما تغوص في أعماقها يتلاشى كل ذلك، فلا تجد أثرًا لزبد، أو حسًّا لهدير، أو إشارةً لأي تباين في الألوان.

مجموعة من الغرباء نحن.. حاولنا أن نستحضر هذا العمق وتلك السعة في قلوبنا منذ سنين وسنين. سعينا ألَّا نحكم على بعض الفئات بناء على غلظة أو خشونة في ظاهر تصرفاتهم -التي بالتأكيد لها أسباب ومبررات شتى- ونظرنا إلى الرحابة الوجدانية الكامنة في أعماقهم، نظرنا إلى سكونهم النابض، وتناغمهم المتقد، وجوانبهم

القابلة للتعافي، المفتوحة إلى الخير، سعينا إلى تقبّلهم واستيعابهم بكل قلوبنا؛ وما كان لنا أن نفكر بغير ذلك، فثوابت الإسلام وكلياته الأساسية تلزمنا بذلك بمقتضى عالميته وإنسانيته. حرصنا على أن نحس بسمت الإسلام هذا، ونشعر بروحه، ونربط جميع تصوراتنا وعواطفنا بهذا المعنى الكامن في جوهره. أقبلنا على ديننا بعمق، فتمسكنا برؤيتنا للحياة بقوة من جهة، وسلَّمنا بوجود أديان واتجاهات فلسفية أخرى واقعًا ملموسًا من جهة أخرى. لقد التزمنا بشعار "وقِّرْ الجميع وتَقبَّلْ كلاًّ على وضعه" منقِّبين عن سبل العيش معًا ليل نهار.

التزمنا بهذه الرؤية وأخلصنا لها؛ لم نحقر أحدًا لاختلاف دينه أو مذهبه أو عقيدته أو اتجاهه الفكري، ولم نجرح أحدًا. تعرَّضنا للاعتداء مرارًا، أُوذينا في أنفسنا، وأهينت كرامتُنا، وشُوِّهت سمعتنا، وتجرعنا أشد المرارات، لكن لم نردّ. كنا نملك أسبابًا لا حصر لها للردّ.. تغاضينا عن كل إهانة وسبٍّ وسخرية، بل اعتبرنا مبدأ "المعاملة بالمثل" ظلمًا فما ارتضيناه لأنفسنا قط، لم نفكِّر في التراجع عن احترام الكرامة الإنسانية الكامنة في أعماق هؤلاء مقابل ما لاقيناه منهم من حقد وكراهية وغلظة وخشونة، واعتبرنا ذلك نوبة طارئة مؤقتة. وضعنا رؤوسنا -إذا تَطلّب الأمر- رصيفًا تحت أقدام كل من لمسنا عنده مشاعر إنسانية، تعبيرًا عن رؤيتنا هذه والتزامنا بها بصورة لا لبس فيها.

إن كان سلوكنا هذا ثمرة ترويض النفس وتطويعها فهو التواضع المحمود بعينه، أما إن كنا بهذا السلوك قد حططنا من قدر ديننا وعرّضناه للذل والمهانة واقترفنا بذلك إثمًا دونما قصد منا، فإنا نضرع إلى الله أن يعفو عنّا ويغفر لنا. لقد رفعنا شعار "احترام الإنسان" ونادينا به، خشينا أن تتضرر القضية وتهتز الثقة بظهور أشخاصنا، فسلكنا سلوك طائر "الهُوما"[٢] لا يُرَى منه إلا أثر ظله، فكان دأبنا التراجع إلى الوراء على الدوام. لم ننتظر شيئًا كبيرًا من هؤلاء الذين حرصنا على كسب قلوبهم، واحترام أفكارهم، واستقبالهم بالأنس والبشاشة في كل سانحة، بل كان كل رجائنا أن يعاملونا بإنسانية لا أكثر. لم يكن هذا القدر اليسير من "الرجاء" سوى منحة "حسن ظن" منَّا إكرامًا لصورتهم "الإنسانية"، ولم يكن

الطبائع السمحة التي نمت ملكاتُها الإنسانية وتفتّحت، والنفوس التي تحترم القيم العالمية، تمضي نحو سماء حقائقها النسبية دون أن تزاحم أحدًا أو تشتجر مع أحد أو تشوه صورة أحد.. تمضي دون أن تعترضها عوائق السير.

أدبنا لِيسمح لنا بغير ذلك.

أجل، حينما فاضت أعيننا فرحًا باستيعاب الجميع، وخفقت قلوبنا حبًّا للإنسانية كافة، لم نطلب إزاء مشاعرنا هذه -التي بلغت عمق أم حنون- أيّ مقابل قط. ولو سعينا في أي طلب، لَتعذّرت إقامة أواصر بهذا الاتساع وهذا العمق مع سبعين أمة مختلفة، إذ الأواصر المبنية على مقابل لا تدوم قط. لقد أسسنا وشائج الود وعلائق الصداقة بيننا وبين الناس على أساس أنهم آيات بديعة من صنع الله ﷻ، حتى تظل تلك الوشائج نابضة إلى الأبد.

لقد ردّدنا هذه النغمة في الحل والترحال، ووزَّعنا أقداحًا من المحبة على الجميع في الليل والنهار -ولعل دندنتنا حول ذلك قد أصاب بعض الرؤوس بالدوار فقابلت محبتنا بالكراهية- فتحنا صدورنا في كل سانحة وعرضنا ما فيها من أفكار ومشاعر إنسانية أمام الكافة، نحَّينا جانبًا النقاش حول معاييرهم القِيَمية -بعيدًا عن كونها قيِّمة أو لا- وحاولنا أن نعيش فوق المعايير، لنتيح فرصة الاستفادة من شلالات محبتنا للجميع، ثم أخذنا ننتظر ساعة السعد التي تلتقي فيها عين العقل مع الفكر السليم. أعتقد أنه كان من حقنا أن ننتظر من كائن كُرِّم بوسام "الإنسانية" هذا القدر من الأداء. ولن يكون التفكير العكسي إلا انتقاصًا من قدره وهو الذي أرسل إلى الأرض مزوَّدًا بمواهب وطاقات تمكّنه من التفوق حتى على الملائكة إن استطاع تفعيلها.

بهذه المشاعر الوجدانية الصافية، ظللنا نحلم سنين وسنين بأننا إذا تركنا صنابير محبتنا مفتوحة عن آخرها، فلسوف تنبت في التربةِ التي تلوّثت بالحقد والكراهية والعداء والمؤامرات، فسائلُ من الحب تنمو وتزهر وتغطي الأرجاء كلها. وهذا ما حصل حقًّا، فقد استجاب جُلُّ المجتمع ممن يقاسموننا أحلامنا وآمالنا لنداءاتٍ

hiragate.com

انبعثت من القلب بإخلاص هاتفة[٣]:

إليَّ بصوتٍ منك يا فارسي! ألاَ تَسمعني؟
منذُ سنين وأنا أتسلَّى بطَيفك دَوما،
أَعيش على أمَل أن تُقْبِلَ يوما،
.....
قلبي المتوهج بالأمل، ينتظرك،
إلى السماوات يعلو حِينًا، ويحبو على الأرض حِينًا،
.....
كل مكان منقوض مهدوم.. هذا عيد البوم!
تحطمت الجسور فلا عابِرَ للسبيل..
جفّت عيون الماء فلا وارد عليها..
.....
فيَا فارِسِي انبعثْ! تمامًا كما في حديث الرؤى..
ثم أَقْدِمْ على صهوة الفَرَسِ الأَبيضِ!
ذاتَ فَجْرٍ، عند بَدْءِ البُكُور،
إنني أغمض الآنَ عَيْنِي فتبصرك الروح،
أيا فارسي! فانبعث وتعالَ!
تمامًا كما في حديث الرؤى!

أجل، تجاوب الملايين مع هذه النداءات المنبعثة من القلب، انجذبوا لسحر هذا الحلم اللازوردي الخلاب، وأخذوا يترنمون بألحان الحب في كل مكان، وانهمر الحب على الرؤوس كالغيث؛ لم نعلّق -في البداية- عليه آمالاً عريضة إلا بقدر الضرورة، كانت بدايته قطرةً أو قطرات، ثم تحول إلى شلالات بعد حين، وغدا أملاً جميلاً يراود شرائح المجتمع كافة تتوسم فيه بشارة لانبعاث جديد لم يَسبِق له مثيل.

كان ذلك بعدًا آخر من تجليات عظمة الخالق سبحانه. فهو تعالى يحقق -في بعض الأحيان- أعمالاً عظيمة بأيدي كائنات في منتهى الصغر لكي ينبّهنا إلى حقارة الأسباب، ويذكرنا بقدرته العلية بأسلوب آخر. أجل، غمرتنا مِنَحٌ متتالية من هذا النوع أثناء هذه الفترة. لقد فتح صاحب القدرة اللامحدودة أبواب القلوب على مصاريعها لأفراد بسطاء من أمثالنا، ومنحهم مقام "السليمانية" في مملكة الحب. نعم، منحهم ذلك، فاختلَّ توزان أرواح شيطانية تمثل الحقد والكراهية والصراع على إثر هذه الصدمة المروعة، وراحت تتخبط في وديان أوهامها العفريتية تائهة مولولة.

صارت الكلمة لأبطال التسامح في كل مكان. كان الحجر والتراب يتحول -في أيديهم- ذهبًا خالصًا، والفحم ماسًا، والسم الزعاف عسلاً مصفى. انتشى هؤلاء السعداء بتحول المجتمع نحو هويته الذاتية بوتيرة سريعة، واغتبط المجتمع باكتشافه لأعماقه الذاتية من جديد. أجل، لقد تصافحت الرقة والبشاشة مع اللطف والمروءة، وأغدقت القلوب التي سئمت رؤية الدماء والدموع والآلام على حظها السعيد ابتسامات جذلى مستشعرة بزوغ فجر ينبض بالسكينة والسلام. جلس الجميع تحت قبة السماء الجميلة يحكون إلى بعضهم قصص القلب وأحاديث المحبة ليل نهار، وولّت تمتمة الساحرات أدبارها للبيان الحقيقي الذي يبعث السكينة والطمأنينة في القلوب باحثة لنفسها عن جُحر تتوارى فيه. كان النور يحقق انتصاراته على الظلمات في كل الجولات، وتفر غمغمات الحقد والكراهية تاركة مواضعها للحب، والأواصر الإنسانية تعزف ألحانها بأحلى وأرق النغمات. قعد البُغض مكتوف الأيدي ينتظر ساعة حتفه، وتلوّت مشاعر الحقد والعداء كمدًا ويأسًا جراء تقلصها وانكماشها.

لم يكن على وجه الأرض من هو أسعد منا، كنا ننتظر ممن لا زالوا يحسون بإنسانيتهم أن يعلّقوا على قلوبهم أرياشًا من أجنحة جبريل، يطيرون بها إلى آفاق تحلق فيها الملائكة، ويُسمِعون الدنيا كلها نغمًا جديدًا تلحينُه من عالم الروح والمعنى، كنا نتوق إلى ذلك بفارغ الصبر. كنا نتلهف إلى سماع نغمة جديدة تنبعث من أعلى طبقات السماء، لا مكان فيها لدمدمة شجار أو صدام، قد أوصدت أبوابها على جميع أصناف الكذب والتزييف والتشويه. لكن المؤلم أن مجموعة قليلة قد جُبِلت على العداوة والاعتداء والفوضى والافتراء تستمد سلطتها وتأثيرها من انتهاجها مهنة التدمير وإثارة الصخب، قد سَدَّت الطرق كالغيلان، واستمالت قلوب بعض الحائرين المترددين العاجزين عن استخدام عقولهم، وسعت إلى إضرام النار في ثمار هذه الفترة المباركة بغية إبادتها، رغم أن خمسة وثمانين بالمائة من أبناء المجتمع متعاطفون معها وفق تحريات واستطلاعات خاصة أجرتها أجهزتهم نفسُها.

ولم يكتفوا بذلك، بل تحينوا فرصة بعد أخرى،

hiragate.com

وبدأوا يشنون غارات متعاقبة على الدين، يشوهون صورة المتدينين، ويَصِمون الجميع بألقاب أيدولوجية وتصنيفات مشبوهة، فهذا "دينجي"، وهذا "طُرقي"[٤]، يشعلون نار الفتنة في كل مكان بفزاعات الرجعية، بل صاروا يرددون الشتائم التي كانوا يمطرونها يومًا على الأمة والدولة في اجتماعاتهم تحت "الرايات الحمراء" في حق المتدينين هذه المرة، يفرغون بذلك ما تخفيه صدورهم من ضغائن وأحقاد دفينة.

فهل يحققون رجاءهم ويفوزون بمبتغاهم؟ تلك قصة أخرى، ولكن كما يقول الشاعر:

إن كان للظالم ظلمه، فوليُّ المظلوم هو الله،
أخو الجور قد يَسلَمُ في هذه الدنيا،
فهل سيَسلَم في ديوان الحق غدا؟ (عاشق محزوني شريف)

صمتُنا وديعة أسلوبنا.. "الرد بالمثل" مبدأ ظالم في أدبيّاتنا.. قطعنا عهدا على أنفسنا: "لا يد لنا على من ضربنا، ولا لسان لنا على من شتمنا". ماذا نفعل؟ لم يمنحنا الله أسنانًا نعضُّ بها، ولا مخالب وحشية نمزق بها. ثم كلٌّ يعمل على شاكلته، لم يكن بوسعنا أن ننهج سلوكًا يناقض طبيعتنا، لأننا اعتبرنا ذلك جريمة في حق أنفسنا وسُوءَ احترام لشخصيتنا، لذلك آثرنا الصمت وضبط النفس وتَجرُّع العلقم في مواطن كان بإمكاننا أن ننطلق فيها بالكلام كالأمواج الهادرة.

ثم إنه لم يبق هناك حاجة إلى أن نردَّ على هذا أو ذاك؛ لأن أزيد من ثمانين بالمائة من المجتمع ورغم كل أصناف التشويه والصخب اعتبروا تلك الافتراءات بلبلة جوفاء، ووقفوا معنا موقفًا مشرّفًا يليق بأمة عظيمة، ولم يضطرونا إلى أن نبدي سلوكًا يناقض أسلوبنا. استطعنا مرة أخرى وبـ"جبر لطفيّ" أن نبقى في إطار العفو والصفح الذي التزمنا به، ولم ننقض عهدنا الذي قطعناه على أنفسنا في استيعاب الجميع بالحب.

أجل، للمرة الأخيرة كشف بعضهم عن زيف معدنهم، وسنحت لنا فرصة كي نعبر فيها عن صدق مشاعرنا ونقاء سريرتنا، وسنلتزم بهذا النهج من السلوك ونواظب على احترام أنفسنا وتوقير شخصيتنا ما حيينا. لن نشجَّ رؤوسًا من أجل دنيا عابرة، ولن نقتلع أعينا، لن نلوث ألسنتنا، ولن نجرح قلوبًا، وسنوجه دعوات الحب إلى الجميع مخلصين في علاقتنا مع أمتنا للعبارات الآتية التي اتخذنا منها شعارًا:

"لقد سامحتُ كل من كان سببًا فيما عانيت منه من أذى وإهانة وتعذيب. لم أذق طوال عمري البالغ نيّفًا وثمانين سنة شيئًا من لذائذ الدنيا. قضيت حياتي في ميادين الحروب وزنازين الأسر، أو معتقلات الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه. عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفيتُ وشُرّدتُ في أرجاء البلاد كالمجرمين. وحُرمت من مخالطة الناس شهورًا في زنازين البلاد.. تعرضتُ لإهانات متنوعة. مع ذلك أعلن أنني سامحت وصفحت عمن فعل بي ذلك". (بديع الزمان سعيد النورسي)

وأنا كذلك كمؤمن، أعاهد نفسي أن أكون مخلصًا لهذه المشاعر، أقسم أنني لن أقاطع أحدًا، ولن أحمل ضغينة في قلبي لأحد. أقسم أن أستقبل الموت باسمًا، أعاهد نفسي أن أعتبر الجفاء الصادر من الجلال، والوفاء الوارد من الجمال شيئًا واحدًا. إنني لا أملك التدخل في حقوق الله، ولكن أقسم أنني لن أقاضي أحدًا يوم الحساب في أي حق يتعلق بشخصي. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد:٢٤٩ (أكتوبر ١٩٩٩). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهوامش

(١) في بداية التسعينات بدأ الأستاذ كولن جهودًا حثيثة في نشر ثقافة الحوار والعيش المشترك في تركيا بين كافة الاتجاهات والتيارات والطوائف، وقد لاقت هذه الجهود تجاوبًا كبيرًا من الجميع فخففت حدة التوتر وقضت على كثير من أسباب النزاع والفرقة، وشعر المجتمع بأهمية توحده على قيم إنسانية مشتركة، واستمرت هذه الجهود إلى نهاية التسعينات حتى قررت مجموعة لها نفوذ في البلاد أن تقوّض كل هذه الجهود، فحدث ما تحدث عنه الأستاذ في المقال في تلك الفترة، وهم اليوم يقومون بالدور نفسه بعد أن قطعت تركيا أشواطًا في الوئام المجتمعي وترسيخ ثقافة العيش المشترك. (المترجم).

(٢) طائر الهوما: طائر أسطوري يعيش حياته كلها يطير على ارتفاع عال بخفاء، ولا يحط على الأرض أبدًا، ومن تسقط عليه ظلال أجنحته ينال السعادة طوال حياته. وهو الطائر الأسطوري الأكثر شيوعًا في دواوين الشعر التركي. (المترجم)

(٣) مقاطع مقتبسة من قصيدة "روح الأمة" للأستاذ فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد ١٥ (المترجم)

(٤) هذه كانت اتهامات الأمس، أما اليوم فقد زاد عليها النظام التركي الحاكم في الفترة من ٢٠١٣ وما بعدها اتهامات جديدة من أمثال "الكيان الموازي، العصابات الإرهابية، الخونة، العملاء، والحشاشين، ومصاصي الدماء.. إلخ". (المترجم)

hiragate.com

د. الشريف حاتم العوني*

الوصايا العشر لتفريق المسلمين باسم الإسلام

من الناس من يصطنع الأصدقاءَ، ومنهم من يصطنع الخصومَ والأعداء.. ومن الناس من يسعى لتوحيد الصف، ومنهم من يسعى لتفريقه. ومن الناس من يتَّسع خندقُه لكل من لم يكن عدوًّا له، ومنهم من يضيق خندقُه إلا على من كان مطابقًا له في آرائه وتصوراته. ومنهم من ينظر إلى كل من لم يكن ضدَّه على أنه معه، ومنهم من ينظر إلى كل من لم يكن معه أنه بمجرّد ذلك قد اصطفَّ مع عدوه.

إن صناعة الأعداء وتفريق الجماعات والتخندق ضدَّ الآخرين، واصطناعَ الصفوفِ المتضادّة والاصطفافَ فيها؛ له وصفته السهلة والتي لا تحتاج ذكاءً ولا علمًا، ولا خططًا طويلة الأمد ولا أفكارًا عميقة. عليك فقط بواحد من المواقف التالية:

أولاً: اجعل كل من خالفك في اجتهادك خصمًا، ولا تَنْسَ اتّهامَه في دينه بالبدعة أو النفاق (والنفاق أولى) وفي أمانته بالخيانة والعمالة (والعمالة أحرى).

ثانيًا: اجعل غالبَ اجتهاداتك الظنيّةِ مسائلَ مقطوعًا بها، وابحث في التراث عن دعاوى الإجماع عليها؛ إذ كيف تهاجم مخالفك بترجيحات ظنية وأنت الذي يتشدق بكلمة الإمام الشافعي: "قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول مخالفي خطأ يحتمل الصواب"، فلا بد من ادعاء شذوذ المخالف ومن ادعاء مخالفته للإجماع، ولا بد من زعم مناقضة قوله الأدلةَ القطعية.

ثالثًا: عليك أن تتوجَّس خيفةً من كل نقد؛ فالنقد بريدُ الزَّندقة، لأن نقدك هو كشف لعورتك أمام العدو، ولا يكشف عورة الأتقياء أمام الأعداء إلا الزنادقة المنافقون.

رابعًا: لا تعترف بالخطأ، بل اجعل الخطأ صوابًا؛ لأن اعترافك بالخطأ فَتٌّ في عضد الأخيار وتَخْذُلٌ مع الأشرار.

خامسًا: ارفض كل جديد وتجديد؛ لأن التجديد لا يقوم إلا على أساسِ اعترافٍ بوجود الخطأ أو بوجود النقص، والاعتراف بالخطأ خطرٌ كبير على مسيرة الصحوة المباركة كما سبق، بل يجب أن ترفض التطوير أيضًا؛ لأن قبول التطوير قبولٌ ضمني بوجود نقص، وهذا ينافي كمال منهج أهل السنة والجماعة الذي نحن عليه بكل حذافيره، فحذار من الانزلاق في وهم التطوير الخطير على المعتقد؛ فهو فسادُ الدين والدنيا.

لكن لا بأس من تطوير يقوم على تبادل الأدوار، وتغيير مكيفات الهواء، وتكييف الغرف غير المكيفة، وافتتاح موقعٍ في النت.. فهذا ونحوه هو التطور المسموح به. وتَنبّهْ مِن أن يجعل المتلوّنون هذا التطوير وسيلة لتطوير الاعتراف بالخطأ والإقرار بالنقص، فإن لزم الأمر فَقُمْ بسدّ هذه الذريعة السلولية -نسبة لعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين- وهي هذا التطوير الخبيث.

سادسًا: سيتَّهمك المنافقون باعتقاد العصمة والتنزُّه عن الخطأ؛ لأنك ترفض النقد والاعتراف بالخطأ، فلا تلتفت لذلك، فإن عصمة منهجك مستمدٌّ من عصمة الكتاب والسنة ومن عصمة منهج السلف الصالح، وأنت الوريث الشرعي الوحيد لذلك المنهج المعصوم، فهجومك على منتقديك ليس ادِّعاءً لعصمتك في الحقيقة وإن لزم منه ذلك، لكنه هجومٌ منطلقٌ من عصمة الوحي الذي قد تَمثَّله السلفُ وكنتَ أنت امتدادَهم.

سابعًا: احذر من دعاة التوسط والاعتدال؛ فهم لا يفهمون من التوسُّط والاعتدال إلا تخطيئك، وإلا التوسط بين الحق والباطل، والاعتدالَ مع الأعداء، بتمييع المبادئ وتضييع العقائد؛ فالذي يتوسط بينك وبين خصمك ما هو إلا كالذي توسّط بين أبي جهل وأبي طالب، ما زاده توسّطه إلا بعدًا عن الحق الذي أنت عليه؛ لأنك أنت هو الحق، والحق معك حيث دُرت دار الحق معك.

وأما ذاك الذي يعدل مع المخالفين، فهو يعطيهم حقًّا لا يستحقونه؛ فالعدالة لا تكون مشروعةً إذا شُرعت سيوفُ الحق، ونادى على المبتدعة منادي الجهاد: "الله أكبر"! فالظلم حينئذ سيكون هو قمة العدالة: فَكَفِّرْ وزَنْدِقْ وفَسِّقْ، وتَفاصَحْ بالشَّتْم والفُحش والافتراء.. فالمؤمن يُستحَبُّ له في بعض المواطن -مثل هذا الموطن- أن يكون فَحّاشًا لَعّانًا بصّاقًا، بل ربما وجب ذلك عليه، فأنت تقوم مقامَ حسان بن ثابت: "اهْجُهم وروح القدس معك"!

ثامنًا: أثبت ولاءك للعلماء الذين يقومون بدور الحارس لآرائك، فأنت لا تدافع عنهم؛ لأنهم على رأيك وموافقون لاجتهادك، بل لأن رأيك واجتهادك لا يجوز أن يُوصَف أصلاً بأنه رأيٌ واجتهاد، فهو حُكْمُ الله ودين الله. ولا يُلبّس شياطينُ الإنس والجن عليك بأن دفاعك عن هؤلاء العلماء ما هو إلا دفاع عن نفسك؛ فهذا غير صحيح، فالحق ومنهج السلف لا يقبل التهاونَ بقبول النقد والتخطيء.

تاسعًا: من خالفك جاهل أو متجاهل: هذه هي تعويذة الصباح والمساء.

مــن الناس من يتّســع خندقُه لــكل من لم يكن عدوًّا له، ومنهم من يضيق خندقُه إلا على من كان مطابقًا له في آرائه وتصوراته. ومنهم من ينظر إلى كل من لم يكن ضدّه على أنه معه.

حراء
hiragate.com

وأما تسبيحاتُ أدبار الصلوات: فـ"سبحان" من خَلَقَنا على الهدى وخلق غيرنا على الضلالة، و"الحمد الله" على حِفْظِ طائفتنا فهم أمانٌ لأهل الأرض، و"الله أكبر" ما أعظم فِكْرَنا الذي احتكر الحق والحقيقة فلا يعرف العلمُ غيرَ مدرستنا، ولا يمرُّ الحق بغير دروبنا، ولا يمكن أن يجتمع علماؤنا على ضلالة.

وأما "الاستغفار" فأكثر من الاستغفار للإمام مالك بن أنس، كيف احتج بإجماع أهل المدينة (الذي يُنسب إليه)؟! أين هو عن عمل علمائنا الذين لا يجتمعون على ضلالة؟! ولو أن الإمام مالكًا فعل ذلك، لما وجد من يأخذ عليه هذا الاحتجاج، كما أُخذ عليه احتجاجه بعمل أهل المدينة.

عاشرًا: من انتقد شيئًا من هذه المواقف السابقة، فلا تتردّد طرفةَ عينٍ في أن تجعله عدوًّا لك، ولا تبخل عليه بالشتائم وبالاتهام في الدين بالتبديع والتفسيق، وطالبه مع ذلك كلِّه بأن يتسامح معك كما تسامح مع الكفار وأهل البدع. فما هذا التناقض الذي يمارسه هؤلاء المتلوّنون.. فهم يتسامحون مع الكفار والمبتدعة بالمطالبة بعدم ظلمهم، ولا يتسامحون معنا بمطالبتنا بالعدل معهم.. وينطقون بنقد أخطائنا وبيان ظلمنا، مع أن أخطاء أهل البدع أقبح وظلمهم أشد.. فلماذا لا يتسامحون مع نقدنا لهم.. لماذا لا يتسامحون مع وصفنا لهم بالحق، و"باسم أهل السنة والجماعة" بأوصاف التمييع والتضييع والجهل والفسق والنفاق.

هذه مواقف عشرة، كل واحد منها كافٍ وافٍ في اصطناع العداوات، وخندقة الجماعات، واختلاق المعارك الوهمية؛ فهم يلعبون بالشطرنج، لكنهم نقلوه من رُقعةِ اللعب إلى رُقعةِ الأُمّةِ! فهم مَنْ رَسَم الرقعة التي على أساسها تكون العداوات، وهم من يَصُفُّون من شاؤوا في صفِّ العدو أو في صف الصديق، وهم من يختلقون المعارك، وهم من يخوض هذه المعارك الوهمية.

فليت هؤلاء حين أباحوا لأنفسهم أن يرسموا رُقعةَ عداواتِ الأمة، وقبل أن يَصفُّوا من يعدُّونه عدوًّا أمام الصف الذي وقفوا معه، ليتهم أباحوا رقعة الشطرنج أيضًا. ■

(*) كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

مسطور القدر

كثيرٌ من المِنَحِ انبثقتْ
من الغيب، قد ساقها المقتدِرْ
وكمْ أَبهرتْنا انتظاماتُهُ
وما يَفجأُ العبدَ؛ كي يَعتبِرْ
فَمَنْ ذاك يَدْري بما يختفي
لنا بين مسطور هذا القدَرْ
إذا ما نظرْتَ فَسِيلاً هنا
ترى باسماتٍ لَدَيْكَ الثَّمَرْ.

***

خلف أحمد أبو زيد*

لغة الطير والحيوان

لعل من الموضوعات العلمية التي تحمل في طياتها الطرافة والعجائب، ما يتعلق بلغة الطير والحيوان وما فيها من عجائب وأسرار. إن الأبحاث العلمية تؤكد أنه ليس من الضروري أن تكون هذه اللغة قائمة على التعبير بالكلمة كشأن لغة الإنسان، بل هي لغة تختلف في مفهومها العلمي اختلافًا واضحًا عن لغة الإنسان، كما أنها تعتمد على كثير من الوسائل المتباينة التي تختلف في طبيعتها من نوع إلى آخر؛ فقد تكون على شكل أصوات أو صيحات أو تغريدات، كما أنها قد لا تكون صوتية على الإطلاق، بل تستخدم فيها بعض الحواس كالشم واللمس والإبصار وغيرها، كما أنها تكون في بعض الأحيان إشارة ضوئية يطلقها بعضها لتستدل منها الأخرى على أماكن تواجدها.. وأيًّا كانت وسيلة التفاهم، فقد اعتبر العلماء والمختصون هذه، لغةً طالما أنها تستخدم في نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات.

كيف تتفاهم الحيوانات؟

من المعروف أن الإنسان يتعلم لغته على مراحل، أما الحيوانات فتفهم لغتها منذ

البداية، وهي ليست بحاجة إلى تعلمها ولا التدرّب عليها، فالقدرة هنا فطرية، وهي تسمح بنقل خبر معين عن طريق علامة معينة إلى سائر أفراد النوع؛ فعلى سبيل المثال، من الممكن عزل النحل منذ نشأته، بحيث لا تتاح له أبدًا فرصة التعرف على رقصات نوعه، ولكن إذا تُرك بعدها للبحث عن الطعام وعثر عليه وعاد إلى خليته، أدى رقصته للمرة الأولى على شكلها الصحيح تمامًا ودون أي خبرة سالفة، فليس بحاجة إلى درس قواعد الرقص، ولا إلى من يلقّنه إياها.

وبناءً على ذلك نخلص إلى أن التفاهم بين الحيوانات يتم على أساس فطري موروث يسمى "السلوك الغريزي"، وهو سلوك فطري لا حاجة إلى اكتسابه بالتعلم كما عند الإنسان، فالأفراخ تفهم أمهاتها، والنحل يفهم رقصات أقرانه دون حاجة إلى تدريب سابق. والآن لنعرج إلى لغة التفاهم في عالم الطير والحشرات والحيوان.

لغة الطير

يحتوي عالم الطيور على عدد كبير من الأنواع يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهم فيما بينهم بوسيلة من الوسائل التي سبق ذكرها، وقد استطاع العلماء والمختصون بدراسة سلوك الحيوان أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذي يتم بين أفراد النوع الواحد قد يكون بقصد التحذير من الأخطار، أو التنبيه إلى وجود مصادر غذائية يتم اكتشافها، أو للتجمع في قطيع واحد أو سرب واحد لبقاء الأسرة متماسكة؛ حتى لا يضل صغارها في مواسم التكاثر أو لغير ذلك من الأسباب.

ومن المعروف أن للطيور عدة وسائل صوتية يتم إحداثها للتفاهم والتعارف والتآلف، منها هديل الحمام واليمام، وتغريد البلابل والكروان، وصيحات الطيور البحرية عندما يشاهد البعض منها سربًا من الأسماك عند سطح الماء، وكذلك صرخات الصقور والنسور وغيرها من جوارح الطير.. ولكل منها دلالات خاصة ومعان محددة من تلك التي سبقت الإشارة إليها.

كما أن للأصوات أهمية فائقة في تجمعات الطيور المهاجرة، وتعيش تلك الطيور طبيعيًّا في الأقاليم الشمالية الباردة من نصف الكرة الشمالي في كل من آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، وهي في الواقع من سكان تلك المناطق، ولكن عند حلول فصل الشتاء تشتد برودة الجو، ويتساقط الجليد على سطح الأرض، ويقل الغذاء تدريجيًّا حتى لا يكاد يوجد على الإطلاق، فلا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش سوى القيام بهجرة جماعية نحو الجنوب، حيث يكون الجو أكثر دفئًا والغذاء أكثر وفرة وتنوعًا. وقد لاحظ علماء الطيور أنها تُحدث خلال تلك الفترة من تاريخ حياتها كثيرًا من الإشارات الصوتية التي تؤدي في النهاية إلى تكوين أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب، ويتكون

كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأنًا، حيث يسير في مقدمة السرب وكأنه رمز للصمود والكفاح، ويقطع البعض من تلك الأسراب المهاجرة آلافًا من الكيلومترات في تلك الرحلة الجماعية.

ولأن هناك أنواعًا من الطيور لا تهاجر إلا ليلاً، فيكون من الضروري إحداث أصوات مميزة ليبقى السرب متماسكًا في طيرانه، ولا سيما في الليالي الحالكة الظلام التي لا يجدي فيها الإبصار، وتكون تلك الأصوات مرشدًا هامًّا لمختلف الأفراد التي تتخلف أو تنحرف عن مسار السرب أثناء طيرانه الليلي.

لغة الحشرات

عالم الحشرات عالم رحب واسع متنوع وزاخر بالعديد من الأنواع؛ فمنها ما يقطن الصحاري الجرداء، ومنها ما يتخذ الجبال والوديان مأوى، ومنها ما يعيش في البيوت والمنازل مختبئًا في شقوقها لائذًا بجدرانها.. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الاختلاف في البيئة وطريقة المعيشة، إلى اختلاف سبل التواصل والتخاطب فيما بينها.. وقد استطاع العلماء عن طريق التجربة والملاحظة تحقيق تقدم في معرفة كنه اللغة الشائعة بين بعض الأنواع، ومنها:

لغة النحل

لقد جذب عالم النحل بنظامه الدقيق الإنسانَ للبحث عن لغة يتم التفاهم بها لتحقيق هذا النظام الدقيق، حتى جاءت أبحاث البروفيسور الألماني "فون فريتش" التي أثبتت أن للنحل نظامًا دقيقًا في تعامله يوازي النظم البشرية ويتحدّاها في التنظيم وتوزيع الأعمال والأدوار وحسن التعاون.. وقد تم عن طريق هذه الأبحاث معرفة أمر اللغة التي تتم بين النحل داخل الخلية وخارجها، حيث استطاع "فريتش" أن يحل كثيرًا من الرموز فيما يتعلق بلغة النحل، وهو يحدثنا بأنها تعتمد أساسًا على حاسة الشم، كما تعتمد على نوع من الحركات الإيقاعية التي أطلق عليها اسم "رقص النحل"، فقد وُجِدت النحلة الشغالة -مثلاً- أنها إذا اكتَشفت أثناء بحثها عن الغذاء في إحدى الحدائق أو الحقول المليئة بالزهور، فسرعان ما تملأ جعبتها من رحيق تلك الزهور، وأيضًا من حبوب اللقاح التي تعثر عليها، ثم تعود بعد ذلك إلى خليتها وقد ملأها الزهو والسرور، وما إن تدخل الخلية حتى تجد الشغالات الأخريات في انتظارها للتعرف على نتيجة تلك الرحلة الاستكشافية، وسرعان ما تبدأ النحلة العائدة في ممارسة نوع من الحركات الإيقاعية التي يفهمها بقية الشغالات، إذ إنها تأخذ في هذه الأثناء ملاحظتها بانتباه شديد، كما أنها تتشمم الرائحة التي تنبعث من جسمها، وهي بطبيعة الحال رائحة الأزهار

التي جمعت منها الرحيق، كما أنها تقوم بعد ذلك بمنح جرعات صغيرة من هذا الرحيق إلى زميلاتها الواحدة بعد الأخرى، لتتحقق أن كل واحدة منها قد استوعبت تمامًا رائحة الأزهار ونوع الرحيق المستمد منها، وسرعان ما تخرج تلك الشغالات بعد حصولها على تلك المعلومات، في أفواج كبيرة متجهة نحو الهدف دون تردد أو إبطاء.

لغة النمل

للنمل أنواع عديدة تربو على ستمائة نوع. والنمل يعيش داخل أوكار يبنيها بنفسه من الرمال، أو في شقوق حجرية يخزن فيها طعامه. يتم التفاهم بين النمل بحاستي الشم واللمس، أما حاسة البصر فهي ضعيفة لديه نظرًا لأنه يقضي معظم حياته في ظلام الوكر الدامس. وقد عوّضه الله ﷻ حاسة قوية في الشم تستطيع تمييز رائحة الإفرازات التي خرجت من الوكر الواحد، حيث يقوم النمل في سبيل الحصول على الغذاء، برسم علامات وإشارات على الطريق، ليسترشد باقي النمل إلى سلوك هذا الطريق الموصل إلى الغذاء، وهذه العلامات هي مواد كيميائية تفرزها غدد خاصة في رأس النملة أو شرجها.

وقد قام بعض العلماء بتجارب على النمل أثبتت أن الغدة المسماة "دوفور" في نمل الميرنيسين، تفرز مادة قلوية ذات رائحة مميزة تخطها على الأرض إبرة في أسفل بطن النملة. وتتبادل النملات العاملات تخطيط الطريق، فترسم الواحدة خطًّا طوله قرابة نصف متر، وتتوالى أخرى وثالثة وهكذا. ومن الأمور العجيبة أنه إذا حاول أحدنا مسح الطريق بالأصبع، يعم الاضطراب في جموع النمل، فيبدأ وسيلته الثانية في التعرف على أفراد عائلته؛ حيث يعمد إلى الملامسة بقرون استشعاره أو بزوج أرجله الأماميتين.

لغة الثدييات

الحيوان الثديي ينتمي إلى ذوات الدم الحار، وهو في الغالب يجري على أربع، يغطي جسمه الفراء والشعر. والثدييات بعضها أليف مستأنس وبعضها مفترس. أما عن اللغة عند هذه المخلوقات ذوات الحناجر فيغلب عليها الصوت، به تدافع عن نفسها، وبواسطته تنادي على بعضها البعض للتجمع، وفيه يظهر غضبها أو رضاها أو جوعها أو ألمها.

نجد -مثلاً- الخيول والحمير والخراف والماعز، تطلق الأصوات العالية عند مهاجمة الحيوانات المفترسة لها، والكلاب تنبح بشدة عندما تشم رائحة غريب أو ترى لصًّا يقترب من منزل صاحبها. أما الغزلان فنجدها تطلق الصوت إشارة لوجود خطر يتهدد القطيع، فتولي هاربة بقدرتها على القفز والركض السريع. أما الذئاب في الغابات فتصدر صوتًا للتجمع، تمهيدًا للأخذ بثأر أحدها إن وُجِد مقتولاً. أما الزرافة والجمل وإناث الجاموس والبقر، فتنادي الذكر بنداءات متميزة عند التزاوج.

وإذا انتقلنا إلى أرقى الأنواع من هذه الحيوانات وهي القرود، نجد أن لغتها تتميز بالصياح ومداعباتها بالحركات ذات الخفة أو السرعة، أو بتعبيرات لحركة الفم، وانقباض الوجه تبعًا لحالتها النفسية والجسمية.. فهي تصدر هذه الأصوات في إشارات لباقي أفراد جنسها، تبدأ صباحًا وتختتم بها يومها، وهي دالة على التجمع لصد الهجوم أو للبحث عن المأكل.

أما الخفافيش فهي ثدييات ليلية تختبئ في جحورها نهارًا، فإذا أقبل الليل وأظلمت السماء خرجت من مخابئها سعيًا وراء الغذاء. وقد لاحظ العلماء منذ وقت طويل، أن للخفافيش قدرة فائقة على الطير السريع في الظلام الحالك، دون أن تصطدم بالأشجار أو الجدران أو الحواجز الأخرى التي تعترض طريقها أثناء هذا الطيران السريع. ولما كان الإبصار لا يجدي في مثل هذا الظلام الحالك، فقد بدأ العلماء في البحث عن الحاسة التي تعتمد عليها الخفافيش في تحركاتها الليلية السريعة، وبعد تجارب مستفيضة لوحظ أن الخفافيش تصدر أثناء الطيران -بصفة مستمرة- أصواتًا حادة فوق سمعية لا تستطيع الأذن البشرية إدراكها، وأن هذه الأصوات أو الموجات الصوتية عند اصطدامها بالحواجز، تنعكس إلى الاتجاه المضاد، فتلتقطه أذن الخفاش ويدرك على الفور وجود هذه الحواجز، فيتحاشاها ولا يصطدم بها على الإطلاق. وقد استُغِلَّت هذه المعلوماتُ الهامة في عمل الرادار. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. محمد جكيب*

دلالات خطاب كولن في حواراته الإعلامية

عنوان الكتاب "مواقف في زمن المحنة، حوارات إعلامية مع فتح الله كولن"، صدر عن دار النيل في صيف ٢٠١٧، وهو عنوان يحمل الكثير من الدلالات والإشارات، وكأني بمن اختار هذا العنوان قد أراد توجيه المتلقي إلى ما قد يعتري المواقف من تحول وتبدل حين تتعرض للمحن والتضييق والأحداث الجسام، لكن مواقف كولن لم تتبدل رغم جسامة الأحداث والاتهامات، التي يتعرض لها، هذه هي الرسالة الضمنية التي يحملها العنوان، وهي رسالة تحمل في ثناياها رسالة ضمنية أخري مفادُها، أن هناك أطرافًا أو طرفًا آخر تغيَّرت مواقفُه خلال هذه الأزمة بصورة تلفت النظر والاهتمام.

فحوى الرسالة

يعزف خطاب هذه المرحلة عند فتح الله كولن على وترين: وترِ خطابٍ أوَّلٍ متجهٍ للعالم الإسلامي وخاصة العالم العربي، قائمٍ على تنبيه من ينبغي تنبيههم إلى خطورة الانسياق خلفَ ما يعرف بسيكولوجية الجماهير وخلف ما ينعت بالإسلام السياسي، الذي فرضت عليه ربما التحولات العالمية والذاتية ولذة السلطة وغياب الوعي الديمقراطي ورفض الاختلاف، سلوكًا يناقض دستوره الفكري وخلفيته النظرية حتى أبعده ذلك عن الحد الأدنى من الأخلاق والقيم التي رُفِعَت شعارًا، ووظفت أيديولوجية من أجل استمالة الجماهير والوصول إلى الحكم والسلطة، وقد يذهب الأمر إلى حد التنكر لتلك

المبادئ الأساسية التي يقوم عليها وجودهم.

أما الوتر الثاني فموجَّه إلى الغرب ويقوم على محاولة تصحيح صورة الإسلام والمسلمين التي اهتزت في السنوات الأخيرة في الوعي الجماعي الغربي، ويقوم على إبراز كون الإسلام ليس دين عنف ولا دين إرهاب، ولذلك لا يفتأ فتح الله كولن يذكر في خطابه بأن الإسلام ليس دين إرهاب، وبأن المؤمن لا يمكن أن يكون إرهابيًا.

يتبنى الأستاذ فتح الله كولن في هذه المرحلة خطابًا يميل إلى إبراز قيم الإسلام السمحة، والمرتكزة على نظرة إنسانية تنظر للإنسان في كل مكان على أنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى، يجب احترامه وتوقيره على هذا الأساس. ويتبنى خطابًا إنسانيًا موجهًا للإنسان في كل مكان على أساس قيم أخلاقية سامية نابعة من قيم الإسلام نفسه، وهو في هذا التوجه يحاول تصحيح تلك الصورة السلبية التي انتشرت في الأوساط الغربية والتي تعتبر الإسلام دين عنف، يرفض التسامح والتعايش، وهو يعكس إلى حد بعيد عمق تمسك حركة الخدمة، وتمسكه هو شخصيًا بهذه القيم.

خطابٌ بعيد النظر

ينبغي قراءة خطاب فتح الله كولن في هذه المرحلة بعينٍ فاحصة تستطلع ما بين السطور، وتقرأ المستقبل فيما يتم التعليق عليه من أحداث وسلوك في ضوء التحولات الكبرى الراهنة. فكولن المثقف والعالِم والمفكر والداعية، عندما يعرض مواقفه من التحولات الجارية التي تعرفها المنطقة، والتي لا يمكن أن يكون العالم بعيدًا عن أثرها وتأثيرها ولا بعيدًا عن توجيهها، بما في ذلك الحملة المعلنة ضده وضد الخدمة. فهو عندما يعرض كل ذلك على مجهر التشريح، لا يستعير أدوات التحليل، ولا يجزِّئ الحالة موضوع التشريح، بل يستعمل أدواته الخاصة النابعة من الخصوصية الفكرية التي ينطلق منها، وهي خصوصية لا تلغي التدابير القدرية التي قد تفتقدها جُلُّ التحليلات التي تتعرض للأحداث، يضاف إلى ذلك الخبرة الطويلة التي كوَّنها الرجل بمعاصرته للكثير من الأحداث والتحولات والتقلبات الثقافية والاجتماعية والسياسية، التي عاشها موطنه تركيا وعاشها العالم من حوله.

كل الذي عاشته تركيا على مدى عمر الرجل الذي تجاوز السبعين يجعل منه شخصيةً ذات عينٍ ثاقبة وبعدِ نظرٍ لا يمكن القفز عليه ولا تجاهله، وحكمُه على الأحداث وعلى ما يجري موسومٌ بالحكمة والعمق، مع دراية بحقيقة الأشياء ومجريات الأمور. قد يكون خطابه مركِّزًا على وطنه تركيا، ولكن لا تذهب عينه ولا نظرته بعيدًا عن تقييم الوضع الدولي، وهذا ما يفسر الحجم الكبير من اهتمام وسائل الإعلام به وبالخدمة، وتسارعها من أجل محاورته والتعرف على مواقفه وآرائه، خاصة وأن الأحداث التي تعرفها المنطقة أو المناطق القريبة من تركيا، لا تُقصي تركيا ولا تستثنيها مما يجري عن قرب.

خطاب التأني لا التسرع

يلح كولن في تصريحاته الإعلامية على جملة مرتكزات ظل دائمًا ينادي بها ولم يحدْ عنها قيد أنملة، فجُلُّ -إنْ لم نقُل كل- الأفكار الواردة في حواراته لها أصل ضمني في كتبه، إذ يمكن الوقف على انسجام شبه تام بين مواقفه وأفكاره وخطابه. وعلى أساس ذلك يلح وهو يحلل الأحداث التي تجري في تركيا، وكذلك وهو يعلق على خطاب دعاة الصراع على ضرورة المشروعية القانونية، وعلى الأسس الأخلاقية وعلى المبادئ.

يقول الناقد الفرنسي الشهير رولان بارت: "اقرأ ببطءٍ تر الكل"، كولن من هذا الصنف من المفكرين الذين يقرؤون الواقع بتأنٍّ وحكمة وبطء إيجابي شديد، ولذلك يُفهم من خطابه الراهن أنه قرأ مقدمات الأحداث الجارية وكوَّن رؤية أو صورة كلية عن الأحداث ومجرياتها، وهذه النظرة الشمولية هي التي حالت دون انجرار المجتمع التركي إلى العنف.

من الأهمية بمكان التسطير على عنصر مهم وهو الدور الذي لعبه كولن في ثمانينيات القرن الماضي وتسعيناته في تبديد جو التوتر الذي كان قد وصل إلى حد رفع أطراف من المجتمع السلاح في وجه بعضهم البعض، وهو ما خلق جوًّا من العداوة والكراهية، لكن حكمة كولن وتوجيهاته فكَّتْ حدة التوتر وقادت المجتمع إلى نوع أشبه بالتوقيع المعنوي على عقد أخلاقي أساسه مصلحة الوطن، ولذلك فإن الأحداث التي تفجرت في ٢٠١٣م والتي استمرت حتى تفجَّر سيناريو الانقلاب،

hiragate.com

مواقف في زمن المحنة كتاب صدر عام ٢٠١٧ عن دار النيل للطباعة والنشر في القاهرة، وهو يتألف من ٣٢٢ صفحة. يجمع الكتاب بين دفتيه حوارات الأستاذ كولن مع وسائل الإعلام المختلفة وبياناته وتصريحاته الصحفية عقب أحداث يوليو ٢٠١٦م وحتى تاريخ صدور الكتاب، وهو بهذا يعد مصدرًا أساسيًا للمهتمين والباحثين في فكر الخدمة والأستاذ كولن في هذه المرحلة، كما تناولت أحاديث الأستاذ كولن وبياناته في هذا الكتاب رؤيته التي تتناول وضع حلول لأزمات ومشاكل العالم المعاصرة مثل قضية العنف والتنظيمات الإرهابية واستدراج الشباب إلى الالتحاق بهذه التنظيمات، هذا إلى جانب حديثه عن حلول للأزمة الكردية التي تعاني منها تركيا منذ عقود.

كانت تسير في اتجاه تبديد هذا العقد المعنوي لأنه لم يكن يخدم مصالح أطراف خطاب الصراع، ويحول دون تحقيق تطلعات هذه الأطراف في القفز فوق المؤسسات وإلغاء سلطتها وسلطة الحوار وإحلال سلطته، من خلال السيطرة على كل الآليات والأدوات التي يوظفها خطاب الاعتدال كالإعلام المحايد، ثم السيطرة على المشهد الإعلامي وتوجيهه إلى تأليب المجتمع ضد بعضه البعض، وإعداد الرأي العام الشعبي لاستقبال خطاب واحد هو خطاب الإقصاء، هذه هي الحقيقة الضمنية التي يوحي بها خطاب فتح الله كولن في حواراته.

لم يدخر خطاب الإقصاء الجهدَ من أجل جرِّ أنصار الخدمة إلى المواجهة والعنف، ذلك لأن جرها إلى المواجهة وربما إلى العنف أسهل طريق لتكسير ما يمكن اعتباره النواة الصلبة في فلسفة كولن وفلسفة الخدمة، وهو الخلفية الفكرية الثابتة والمجال الحيوي الذي يعسر على الخطاب الآخر مجاراة فتح الله كولن فيه. القراءة المتأنية الحكيمة لمجريات الواقع هي التي سمحت لكولن بأن يجنِّب المجتمع أزمة صراع مجهول العواقب؛ وعلة ذلك هو شدة الالتزام بالمبادئ الأساسية التي ظل دائمًا يلح عليها، كاحترام القوانين واحترام المؤسسات، وتقديم الدليل بعد الدليل على أن الالتزام الأخلاقي بالقيم والمبادئ هو أقرب سبيل لكل استغلال عقلاني لمقدرات الوطن البشرية والثقافية والعلمية والطبيعية والاقتصادية وغيرها.

خطاب الاستقرار

يُحيل فتح الله كولن في خطابه الضمني على مفهوم الدولة. فالدولة في نظره هي المؤسسات، وأداء هذه المؤسسات لدورها الكامل على أكمل وجه ودون نقص، بل إن الدولة تصير هي المؤسسات وتحتل مكانًا فوق الأشخاص فرادى وجماعات، يأتي الأشخاص ويذهبون ويتداولون على تدبير شؤون الدولة، لكن لا أحد يحق له التماهي مع الدولة حتى يصير هو الدولة.

ولما كانت الدولة هي المؤسسات فإن قيام هذه المؤسسات بواجبها هو لب الدولة وجوهرها، واحترام إرادة الجماهير بعدم التدخل في هذه الإرادة بالقهر والتخويف والمحاصرة ومصادرة الحق في الموقف، والحق في التعبير عن الموقف واستقلاله يلغي جوهر الدولة.

إذا كان الذين يعيشون في ظل الدولة وَاعِين بأن حقوقهم محفوظة، ويتمتعون بهامش مهم وضروري من الحرية، الذي يضمن لهم حقوقهم ويتيح للإنسان ممارسة دوره المنوط به، فإن هذا الأمر مدعاة للاستقرار، والاستقرار سبيل إلى التنمية، ومن هنا يؤكد كولن في خطابه بالتلميح تارة والتصريح تارة أخرى بأن أسباب النهضة لا تتأتى إلا بقدر معين من الحرية المحكومة بالقيم والأخلاق، لأن من شأن هذه الحرية أن تقود إلى خلق إنسان مطمئن على نفسه وعرضه وماله وحريته، الأمر الذي ينعكس إيجابًا على قدرته على العطاء، وقدرته على الابتكار والإبداع، وتلك العناصر ضرورية لبناء حضارة قوية وصنع نهضة حقيقية.

يلمِّح فتح الله كولن إلى قضية ذات أهمية بالغة جدًّا وهي علاقة القوى الحاكمة في تركيا بالقيم والأخلاق. قد تبدو القضية بسيطة في أسلوب طرحها، لكنها تطرح إشكالاً دقيقًا عن علاقة السياسة بالأخلاق، من خلال سؤال ضمني حول ما إذا كانت السلطة السياسية التي بارزته العداء، والتي تدعي الاستناد إلى خلفية أخلاقية، بل ودينية تقف عند القيم وعند المبادئ، التي على أساسها

وصلت إلى رأس الدولة، وعلى أساسها يتم التطلع إلى زعامة معنوية تتوسل بالقيم والأخلاق والتاريخ، وقد تتحول لأن تصير عملية خارج تركيا إقليميًّا في جغرافية العالم الإسلامي.

خطاب المكابدة

مرحلة المكابدة فرصة تاريخية لكولن لإعادة بسط رؤاه في الكثير من القضايا كان يحجم عن إثارتها قبل هذه الأحداث لأسباب موضوعية ومنهجية، وربما لأسباب شخصية، وربما لأنها كانت تحتاج إلى مناسبة والمناسبة شرط كما يقال، وهي قضايا تدرج في حقل الفكر السياسي. عندما انفجرت الأزمة ارتفعت بعض الأصوات التي رأت في السلوك السياسي القائم على أيديولوجيا الحزب، وارتفاع نبرة خطاب الاستعداء ضد الخدمة سلوكًا طبيعيًّا تفرضه السياسة، لأن السياسة هي فن الممكن، ولأنها أي السياسة لا تستقر على حال وثبات المواقف أمر نسبي، ومواقف السياسي قابلة للتحول تبعًا لمتطلبات اللعبة السياسية.

ظل فتح الله كولن ملتزمًا دائمًا بأن ممارسة السياسة عن طريق العمل الحزبي اختيار لا يتناسب والمبادئ التي نذر حياته كلها لأجلها، ولعمري إنه لم يرفض هذا الاختيار خوفَ الفشل فيه، أو خوف انعدام الإطار البشري المؤهل للسياسة أو غياب من يستحق الثقة، ولكن لأن التحزب وممارسة السياسة بالمنطق الذي تتبناه الأحزاب السياسية، وحتى بالمنطق التي تتبناه حركات الإسلام السياسي، يؤدي إلى الصراع وإلى الفرقة وإلى الخلاف، ومحاربة الصراع والفرقة مكوِّنٌ ظلَّ كولن على مدى عمره الحركي يردد مع الشيخ بديع الزمان النورسي بأنها -أي الفرقة- عدوٌّ للإنسان كما الجهل والفقر. لعل الخطاب الذي يتبناه كولن هو خطاب الابتعاد بالمنظومة الأخلاقية الإسلامية عن مجال الصراع الأيديولوجي، صارخًا بملء صوته: إن توظيف الدين للوصول إلى غايات سياسية وبسط سلطة على الناس وجرهم إلى مواقف تفتقر إلى البعد الاستراتيجي، يخرج الإسلام عن جوهره الذي جاء به للناس.

خطاب رفض الإرهاب

من أهم ما برز في خطاب المرحلة هو قضية الإرهاب فقد ارتبطت الأحداث باتهام كولن والخدمة بالإرهاب، ومن المهم تسجيل أن كولن كان قد نَبَذ الإرهاب قبل هذا التاريخ بوضوح، وبشكل ضمني في كتاباته، وبشكل صريح في مواقفه، وكان من أوائل الشخصيات الدينية والفكرية في العالم الإسلامي التي أدانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر المشهورة، فخطاب رفض الإرهاب ليس أمرًا حادثًا في خطابه بل هو أصيل عبَّر عنه في عديد من المناسبات بشكل صريح وضمني، ولم يتوقف عن التذكير بأن الإسلام أبعد ما يكون عن الإرهاب، وبالتأمل في هذا الموقف نجده موقفًا لا يخرج عن إطار موقف فتح الله المعروف، والذي أبرزه بشكل واضح في كتاباته سواء من خلال نقاشه لقضية الجهاد حين اعتبر أن الجهاد الأكبر هو المطلوب في هذا العصر نظرًا لتغير الظروف، ولأن جهاد النفس ودفعها لأن تكون في خدمة الإنسانية، ومقاومة كل أسباب الانحراف السلوكي والأخلاقي الذي جاءت به الحياة المعاصرة هو الجهاد.

وبناء على هذه الرؤية اليقينية دفع كولن بشدة تهمة الإرهاب عنه وعن الخدمة، وتحدى المتهمين بأدنى دليل يثبت ذلك، بل وجزم بأن أحدًا من المتعاطفين مع فكر الخدمة يستحيل أن يتورط في الإرهاب، لأن الإرهاب من شأنه أن يولد العداوة بين أفراد المجتمع الواحد، ويزرع أسباب الفرقة، وينشر أسباب التوتر الدولي.

إن تفنيد اتهامات الإرهاب بقدر ما يعني كولن والخدمة يعني طمأنة الغرب وكل من أصابته فوبيا الخوف من الإسلام، خاصة وأن من أهم القضايا التي ظل كولن يشتغل عليها وإلى الآن هي قضية تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين في العالم كله وخاصة في الغرب، ولعل ما يصدر عن الخطاب الآخر قد يُفهم منه على أنه سلوك مرتبط بالإسلام وبمن يرفعون شعارات ذات بعد إسلامي، وقيَمُ الإسلام أبعد ما تكون عن ذلك، ومن هنا فإن كولن يَعتبر أن من مسؤوليته أن يصحح هذه الصورة، ووظيفة الخدمة كما يدل على ذلك خطابها المتداول في الغرب هو تقديم صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين وصولاً إلى فكِّ التوتر الحاصل بخصوص هذه القضية حتى صار لها مصطلح يعبر عنها في الغرب هو "الإسلاموفوبيا".

hiragate.com

خطاب التعايش

جعل كولن من خطابه في هذه المرحلة ومن خلال المنابر الإعلامية التي حاورته مناسبة لتأكيد اقتناعاته الفكرية، التي ظل على مدى عقود طويلة يعمل على ترسيخها، فقد كانت ميوله متجهة إلى نزع كل أسباب التوتر داخل المجتمع، من خلال الإيمان بأن المجتمع فسيفساء متنوع من القوميات والثقافات والديانات والطوائف والمعتقدات الفكرية والفلسفية والسياسية والأيديولوجية، وبأن استقرار المجتمع يكمن في تعايش الجميع تحت مظلة واحدة يضبطها القانون وتضبطها الديمقراطية، ولم يمل من الإلحاح على أن الخيار الديمقراطي لا رجعة فيه لأنه هو السبيل الذي يتيح للفسيفساء المجتمعي القيام بمهمة البناء والتشييد على أكمل وجه.

إن خطاب كولن في هذه المرحلة فرصة لإعادة التذكير بكون السياسة جزءًا صغيرًا من المنظومة الإسلامية، في الوقت الذي يحتل فيه الأخلاقي والمعاملة الحيز الأكبر، ومن الإجحاف في نظر كولن اختزال المنظومة الإسلامية بما هي منظومة أخلاقية ومعاملات في حيز ضيق هو السياسة.

لقد ظل كولن حريصًا على نقل قيم الإسلام وبُعدها الحضاري إلى مجال الواقع الاجتماعي، وفتح المجتمع على آفاق واسعة تتجاوز السياسي بمسافة طويلة، ومن هنا يأتي إلحاح الخدمة في اختيارها عن اقتناع رفض دخول مجال الغمار السياسي، دون أن يعني ذلك عدم إبداء مواقفها من الأحداث السياسية ورؤيتها للعملية السياسية بصفة عامة.

وفي هذا الخطاب دعوة كذلك للرأي العام للخروج من دائرة التعاطف الانفعالي ومن دائرة سيكولوجية الجماهير، التي أتت على الأخضر واليابس خلال مرحلة ما يُعرف بالربيع العربي، والذي يَعتبره كولن -دون إخفاء- خريفًا عربيًّا لأنه أدخل بعض العالم العربي في دوامة العنف وعدم الاستقرار والفوضى، وكما سبقت الإشارة فإن كولن يعتبر الاستقرار سبيلاً أمثل لتحقيق التنمية وتحقيق النهضة بالتركيز على محاصرة أعداء الإنسان الجهل والفقر والفرقة، وأما التركيز على ما يقوّي الأعداء فهو مجانبة للصواب، وهنا تبرز أحد أهم أسباب الخلاف مع حزب العدالة والتنمية وخاصة مع زعيمه، فقد اعترض كولن على تدخل هذا الزعيم في الشؤون الداخلية لبعض هذه الدول التي عرفت ثورات عربية، من أجل أهداف ترمي إلى السلطة والهيمنة، والبحث عن بطولة دينية وسياسية.

على سبيل الخلاصة

الظاهر من خلال التأمل في مكونات خطاب كولن، الذي يجمع بين البعد الفكري والبعد الثقافي والإنساني والبعد الدولي الاستراتيجي والبعد السياسي، أنه خطاب لم يخرج عن دائرة الاقتناعات الفكرية والمنهجية التي آمن بها كولن وسارت عليها الخدمة منذ زمن، والتي نجدها مبثوثة في كتبه، والتي يمكن لمسها من خلال المنجز الذي تحقق على يد رجال الخدمة في مجال محاربة الجهل ومحاربة الفقر ومحاربة التفرقة والصراع.

كما أن الخطاب يبرز وجود اختلاف عميق في نظرة الخدمة للدولة، ونظرة خصومها، ففي الوقت الذي يميل فيه الخصوم إلى تدبير شؤون الدولة بمنطق سياسة فن الممكن، والمقاربة الأمنية، واعتبار السلطة والتحكم هي الغاية الأساسية للسياسة والزاوية الوحيدة للنظر إلى الدولة، في الوقت الذي تقوم فيه رؤية كولن على مبدأ تداول السلطة عن طريق الديمقراطية، وتقوية الحريات، وفتح المجال أمام المجتمع المدني للقيام بواجبه بعيدًا عن التوتر الذي يخلقه تصنيف المواطنين على أساس أيديولوجي، وعن طريق ضمان الدولة للحريات وخاصة في مجال الإعلام، لأن من شأن ذلك فتح الباب أمام فئات المجتمع للتعبير عن ذاتها وعن مواقفها وهو ما يكفل بأن يصنع حيوية المجتمع ويضمن استقراره.

هذا الاستقرار الذي يعتبره الأستاذ فتح الله كولن الضامن الأول لتحقيق النهوض، فالاستقرار سبيل من سبل إتاحة الفرصة أمام المجتمع من أجل الإبداع والمساهمة في التنمية، ليخلص هذا الخطاب إلى تثمين قصة الحوار والنقاش، فكل الخلافات يمكن تجاوزها عن طريق الحوار. ■

(*) أستاذ الفكر والحضارة بجامعة أبي شعيب الدكالي / المغرب.

hiragate.com

د. حفيظ اسليماني*

مركزية الإنسان في البناء الحضاري
رؤية مالك بن نبي

إن الإنسان هو محور التقدم، وإذا لم تُحلَّ مشكلة هذا الإنسان فإنه لا يمكن البتة الحديث عن أي تغيير يذكر، لذلك نجد مالك بن نبي يفصِّل تفصيلاً فيما يخص حديثه عن مشكلة الإنسان، من خلال رسم منهجية واضحة قائمة على أسس ثلاثة، هي توجيه الثقافة، ثم توجيه العمل، وأخيرًا توجيه رأس المال.

ونتوقف مع فكرة التوجيه بصفة عامة، والمقصود بها -وفق رؤية ابن نبي- قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف. فكم من طاقات وقوى

لم تستخدم كما ينبغي، بل ضاعت دون أن تحقق هدفها، وهنا بالتوجيه بصفة أخص يقول ابن نبي: "هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت. هناك ملايين السواعد العاملة، والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، المهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكوَّن من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه. وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسًا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية وبلغة الاجتماع الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة ومعنى الكفاح".

توجيه الثقافة

يرى ابن نبي أن توجيه الأشياء الإنسانية يعني أولاً تعريفه، والثقافة من هذه الأشياء الأساسية التي تتطلب بإلحاح تعريفها، بل تعريفَين ويذكر من ذلك:

الأول يحددها في ضوء حالتنا الراهنة، والثاني يحددها مصيرنا، مؤكدًا على أنه يجب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية للحياة. وهذه التصفية حسب ابن نبي لا تتأتى إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، وهو وضع النهضة، معتبرًا أن ثقافة نهضتنا لم تنتج سوى حِرَفيين منبثين في صفوف شعب أمي، يقول ابن نبي: "ونحن مدينون بهذا النقص لرجل "القلة" الذي بتر فكرة النهضة فلم ير في مشكلتنا إلا حاجته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرئيسي لما في نفسه من كساد، وعليه إنه لم ير في الثقافة إلا المظهر التافه، فهي عنده طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد فعلمٌ يجلب رزقًا".

وعليه، نحن بحاجة إلى حل مشكلة الثقافة، وحسب ابن نبي فهي لا تخص طبقة دون أخرى، بل تخص المجتمع كله بما فيه المتعلم والصبي، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة. وقد مثَّل لها ابن نبي بوظيفة الدم الذي يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما

إن الإنسان هو محور التقدم، وإذا لم تُحلَّ مشكلة هذا الإنسان فإنه لا يمكن الحديث أبدًا عن التغيير, ولقد انطلق ابن نبي من مركزية الإنسان في البناء الحضاري، مؤكدًا أن الأمر يستلزم ثلاثة ركائز، هي توجيه الثقافة، ثم العمل، ثم رأس المال لدى هذا الإنسان.

يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسم، وكذلك هي الثقافة؛ فهي دم في جسم المجتمع يغذي حضارته، ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتجاهات الموحدة والأذواق المتناسبة. يقول ابن نبي: "وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة، ينحصر برنامجها التربوي، وهو يتألف من عناصر أربعة يتخذ منها الشعب دستورًا لحياته المثقفة:

١- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

٢- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

٣- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

٤- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو "الصناعة" حسب تعبير ابن خلدون".

ونتوقف هنا مع هذه العناصر:

١- التوجيه الأخلاقي: المقصود بالأخلاق هنا من الناحية الاجتماعية لا الفلسفية، ويبيّن ابن نبي أنه ليس المقصود هنا أيضًا تشريح مبادئ خلقية، بل تحديد قوة التماسك اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، وهذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في الجماعة عند الفرد، والتي تتيح بناء القبيلة والعشيرة والمدينة بروح خلقية سامية، وهنا يقول ابن نبي: "هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد ببعضهم البعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(الأنفال:٦٣). وهكذا، فروح الإسلام هي التي خُلِقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين

hiragate.com

أول مجتمع إسلامي، يقول ابن نبي: "إن قوة التماسك الضرورية للمجتمع موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن أي إسلام؟ الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام جماعي". ولعل قوة التماسك هاته جديرة بأن تؤلف لنا الحضارة المنشودة.

٢- التوجيه الجمالي: يرى ابن نبي أنه لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، معتبرًا أن المجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه. يقول في ذلك: "بالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعًا إلى الإحسان في العمل". إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أيّة حضارة حسب تعبير ابن نبي.

٣- المنطق العملي: المقصود بالمنطق ليس كما دُوِّنت أصوله وَوُضعت قواعده منذ "أرسطو" وإنما كيفية ارتباطه بالعمل ووسائله ومعانيه. وهنا يرى ابن نبي أننا نحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العملي في حياتنا، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه، فشيء يكاد يكون معدومًا؛ والسبب في ذلك حسب تعبير ابن نبي: "افتقادنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومُثُلها، بين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مُثُلها العليا، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله، وفي كل خطوة نخطوها"، منبهًا إلى مسألة القول بأن "المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن"، ومن الأصوب حسب ابن نبي: "أن نقول إنه يتكلم تبعًا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي الإسلامي في سلوكه".

فالمسلم حسب ابن نبي لا ينقصه منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل يفكر ليقول كلامًا مجردًا، يقول ابن نبي: "ومن هنا يأتي عقمنا الاجتماعي، فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي، ولننظر إلى الأم التي تريد أن تربي ولدها، فهي إما أن تبلّده بمعاملة أمّ متوحشة، وإما أن ترخي له العنان وتتميع معه، فإذا أبدَت إشارة أو أصدرت أمرًا، شعر الطفل بتفاهة إرادتها فلم يعبأ بها، إذ إنَّ الوهن والسُّخف يطبعان منطق قولها حتى في عين هذا الصبي المسكين". وما أحوجنا اليوم -قبل الغد- إلى المنطق العملي وفق المنهج والسلوك الإسلامي لمسايرة روح العصر، فهل نحن فاعلون؟

٤- الصناعة: الصناعة وسيلة لكسب العيش وبناء المجد، بل بناء كيان المجتمع ليستمر في طريق نموه، وهنا يرى ابن نبي ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني، ليحلَّ نظريًّا وعمليًّا المشكلة الخطيرة للتربية المهنية تبعًا لحاجات البلاد.

توجيه العمل

الحلقة الثانية من مشكلة الإنسان بعد توجيه الثقافة هي توجيه العمل، فهذا الأخير وحده هو الذي يخطط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي. ورغم أنه ليس عنصرًا أساسيًّا كالإنسان والزمن والتراب، إلا أنه يتولد من هذه العناصر الثلاثة لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية، يقول ابن نبي: "عندما كان المسلمون الأُول يشيدون مسجدهم الأول بالمدينة، كان هذا أول ساحة للعمل صُنعت فيها الحضارة الإسلامية. فلو أننا نظرنا إلى هذه الساحة في بساطتها وقلة شأنها في ذلك الوقت، لدعانا المشهد إلى الابتسام، ولكن أليس هنالك قد تلقَّى بناءوا الحضارة الإسلامية دورس العمل؟ أوَليسوا هنالك قد قبضوا لأول مرة على عصا التاريخ؟".

وهنا يرى ابن نبي أن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي بعامة، يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة بناء جديدة في البناء، يقول ابن نبي: "فإعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية عملٌ، وتقبل هذه الحروف عملٌ، وإزالة أذى عن الطريق عملٌ، وإسداء نصح عن النظافة أو الجمال -دون أن يغضب الناصح حين لا يُصغى لنصحه- عملٌ، وغرس شجرة هنا عملٌ، واستغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عملٌ". وهكذا يكون توجيه العمل هو تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع

hiragate.com

hiragate.com

الإنسان، وخلق بيئته الجديدة، ومن هذه البيئة يشتق العمل الآخر: "كسب العيش لكل فرد"، يقول ابن نبي: "والواقع أنه يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطًا عامًّا أولاً، ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك، لأن هذا التوجيه -حين يتحد مع توجيه الثقافة وتوجيه رأس المال- يفتح مجالات جديدة للعمل".

توجيه رأس المال

قال مالك بن نبي وهو يتحدث عن رأس المال، بأن هذا الأخير لم يكن هو المشكلة التي تعرض لها "كارل ماركس"، وإنما كان تعرضه لنتائجه الاجتماعية من خلال تركيز رؤوس الأموال، وظهور طبقة البروليتاريا العاملة. وبالتالي فظروف ذلك العصر لم تدفع بـ"ماركس" إلى تحديد رأس المال من حيث هو آلة اجتماعية، وإنما من حيث هو آلة سياسية بين طبقة معينة هي البرجوازية مقابل طبقة مضطهدة هي البروليتاريا. أما حال البلدان الإسلامية في ذلك الوقت لم تكن تواجه مشكلة الرأسمالية، لأن رأس المال لم يتكون بعد. وهنا يقول ابن نبي: "فالقضية في البلاد الإسلامية ذات طابع يختلف تمام الاختلاف عن صورتها في أوروبا، ومن هنا كان حتمًا علينا دراسة هذه المشكلات دراسة خاصة، وبالتالي تحديد رأس المال ذاته من زاوية أخرى باعتباره آلة اجتماعية تنهض بالتقدم المادي لا آلة سياسية في يد الرأسمالية". وهكذا يرى أن تحديد الثورة في البلاد الإسلامية من وجهتين:

أ- بالنسبة للمركز الاجتماعي لصاحبها؛ فهو فلاح أو صاحب ماشية أو صاحب ضيعة.

بـ- بالنسبة لاستعمال صاحبها لها؛ وهو يستعملها في إطاره الذي تقتضيه حرفته المحلية، فهي شيء محلي مستقر في حقل صاحبه أو داره أو حول خيمته.. يقول ابن نبي: "إن توجيه رأس المال -وهو لا يزال في طور التكوين في بلادنا- لا يتصل أولاً بالكم بل بالكيف، فإن همنا الأول أن تصبح كل قطعة مالية متحركة متنقلة تخلق معها العمل والنشاط، أما الكم فإن ذلك الدور الثاني، دور التوسع والشمول".

لقد اعتبر ابن نبي أن تاريخ العرب نفسه، يحمل نموذجًا بسيطًا لما تم تقديمه؛ إذ كانت مكة قبل الإسلام تسير أموالها حسبما يقتضيه الأسلوب الرأسمالي، ومن المعروف أن قريشًا لم تكن تملك من أموال الإنتاج الشيء الضخم كالعقارات والمصانع، غير أن قوافلها كانت تجوب الصحراء حاملة بضائع الشرق الأدنى في رحلة الشتاء والصيف، وكانت قريش كلها تسهم في تزويد هذه الرحلة".

كما يرى أن القضية الجوهرية ليست في تكديس الثروة، بل في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد.. مؤكدًا في الوقت نفسه، أن القضية قضية منهاج يحدد لنا تخطيطًا مناسبًا نبني عليه حياتنا الاقتصادية، ولا يكون فيه مكان لتركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة تستغل السواد الأكبر من الشعب، بل يجب أن يتوفر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيرًا، بذلك يتم التعادل بين طبقات المجتمع، وتنسجم مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد. وختم ابن نبي بالقول: "وبهذا التوجيه الذي يسير متضافرًا مع توجيه الثقافة وتوجيه العمل؛ يكون الفرد قد استكمل الشروط اللازمة لتشييد حضارة تطابق إطاره الخاص".

وجملة القول، إن مالك بن نبي قد وقف على منبع المشكل في البلاد الإسلامية، ورسم بذلك منهجًا للخروج من المأزق الحضاري، منطلقًا من مركزية الإنسان في هذا البناء، مؤكدًا أن الأمر يستلزم ثلاثة ركائز، وهي توجيه الثقافة، ثم العمل، ثم رأس المال. ومما لا شك فيه أنه بهذه التوجيهات الركائز سيتمكن الإنسان من بناء المجتمع ثم الأمة بناءً حضاريًّا يساير تطور الأمم الأخرى. وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه الكتابات الفكرية المنهجية، الموقظة لروح العلم والعمل والتخطيط، خدمةً للأمة الإسلامية بصفة خاصة، والإنسانية بصفة عامة. ■

(*) جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب / المغرب.

المرجع

(1) شروط النهضة، لمالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

hiragate.com

د. لطف الله خوجه*

عجز الإنسان

هل جرب أحدنا أنه أراد شيئًا فرغب فيه وتشوق إليه فكانت له إرادة جازمة عليه، ثم تيسرت له السبل وفُتحت له الأبواب لذلك، لكنه مع كل ذلك وجد في نفسه عجزًا عن إتمام ما يريد وإنجازِ شيء هو بين يديه وهو يحبه ويتمناه، عجزًا يعجب له فيسائل نفسه عن سر هذا التردد والضعف في تحقيق أمنية بين عينيه طوع أمره فلا أحد يقف عائقًا في طريقه؟

وهل حصل أن أحدنا قصد إلى دفع شر وبلاء عن نفسه، وسلك لذلك كافة سبل المعالجة، ونجح في قطع الطرق إليه، وتعطيل كل الذرائع لتأمين سلامته، ثم مع ذلك وقع عليه ما يخافه ويخشاه، فرأى أنه يمشي إلى حتفه بنفسه، كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر إليه؟

نعم، كلنا يعرف أنه ما من أحد فينا إلا ولقي من هذا شيئًا؛ ففينا من تأمل وتفكر وتدبر في هذه الظاهرة العجيبة الغريبة فاتعظ وفهم ما وراءها من حكمة بالغة، وفينا من مر عليها مرور الغافلين: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥)؛ والآية في هذه الالتفاتة هي ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(البقرة:١٦٥)، وأن العبد ليس له من القوة شيئًا إلا ما أقدره الله عليه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(التكوير:٢٩).

قيل لحكيم من العرب: "كيف استدللت على وجود الله؟"، قال: "بفسخ العزائم"؛ أي يريد الإنسان شيئًا فيعجز عنه وهو قادر عليه.

خلق الله الإنسان فأعطاه آلات القدرة؛ من يدين ورجلين وسمع وبصر ولسان، فحلاَّها بالقوة والطاقة، فلو شاء نزع طاقتها وقوتها فتعطلت آلاته عن العمل، فهي له كصور معلقة على جدر، ميتة لا تحل ولا تعقد، وهو يشعر بذلك، ولا يملك من أمره شيئًا، فيدرك حدَّه وضعفه، والمرضى يفهمون هذه الحقيقة قبل الصحاح.

وإذا شاء أعمل آلاته بالقوة، فانطلق يحرث ويمشي ويلعب ويعبث ويصلي ويفسق.. يفعل ما يحلو له، وهو يظن أنه أوتي كل ذلك بقوته وبنفسه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨). حتى إذا أراد الله تعالى به خيرًا سلبه قوته فأراه حقيقته؛ ليتوب وينوب إليه، فإن كان جبارًا ماردًا لم تنفع فيه المواعظ، عرَّاه من كل حول، وأراه خزيه في الدنيا قبل الآخرة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(القصص:٨١).

ربنا يعلمنا هذه الآية لننتفع منها في موضعين:

الأول: في موضع العبادة، فندرك يقينًا أنه لا حول لنا ولا قوة على فعل طاعة نتقرب بها إليه، ولا ترك معصية نتجنب بها سخطه إلا بمعونته وقدرته وحده لا شريك له.

الثاني: في أعمال الدنيا، أنه لا قوة لنا على القيام بأعباء الحياة في أي اتجاه إلا بما أقدرنا عليه وأعاننا

إن معرفة الإنسان بحقيقة عجزه، يحمله على التواضع وترك الظلم والعدوان إذا ما آنس من نفسه قدرة وطَوْلاً، فما أدراه بتقلب الحال، فالذي جعل منه قويًّا قادر على تبديل ضعيفًا.

عليه، فلولا عونه لنا ما حركنا حجرًا، ولا قدَّمنا ولا أخَّرنا، بل وأنفاسنا ما هي إلا من فضله علينا.

قال النبي ﷺ: "لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة" (رواه البخاري)؛ أي لا تحوُّل من حال المعصية إلى الطاعة، ولا من الفشل والضعف إلى الفعل والقوة، إلا بمعونة من العلي العظيم، وفي هذا يقول الصحابي عبد الله بن رواحة ﷺ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا *** ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا *** وثبِّت الأقدام إن لاقينا

هذا الاعتراف من قبلنا بالعجز، يولد لنا عبودية له سبحانه هي: الاعتماد عليه والثقة به، والبراءة من حول النفس وقوتها. هذه العبودية يسميها القرآن "توكلاً". وقد جاء الأمر به في القرآن فقال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(هود:١٢٣)؛ أي أخلص العبادة له، واستعن به على إخلاص العبادة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في وصيته لعبد الله بن عباس ﷺ وقد كان صبيًّا: "يا غلام! إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله" (رواه الترمذي).

الاستعانة بالله والتوكل على الله والاعتماد على الله والثقة به، كلها بمعنى واحد، هو ركون القلب إلى الله وحده والالتجاء إليه طلبًا للعون.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۞ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۞ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾(الطارق:٥-١٠).

أيُّ شيء للإنسان بعد هذا يفاخر به؟ فليس له إلا التواضع مهما علت مرتبته منصبًا أو جاهًا أو نسبًا وشرفًا، أو مالاً أو عشيرة.. وليس له إلا أن يفاخر بعلاقته بربه وإطاعته أمره ووقوفه عند نهيه.

hiragate.com

ليس فخرًا كفخر المغرورين، بل فخر عزة بالحق، واستعلاء بالإيمان على الكفر والطغيان: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩)، ومن هنا جاء الإذن النبوي به؛ أن يختال المسلم في موضعين:

الأول: عند الصدقة؛ لأنه يستعلي به على الشيطان الآمر بالبخل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾(البقرة:٢٦٨).

الثاني: عند العدو إذا برز إليه في الحرب؛ لأنه يستعلي على الكفر، قال ﷺ وهو يرى أبا دجانة ﷺ يمشي بين الصفين مختالاً: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن".

إن معرفة الإنسان بحقيقة العجز، وأنه أصل فيه، وأن قوته فرع واستثناء، لأنها ليست منه، بل ممن وهب له الحياة والوجود.. معرفته بهذا يقينًا، يحمله على التواضع وترك الظلم والعدوان إذا ما آنس من نفسه قدرة وطَوْلاً، فما أدراه بتقلب الحال، فكم من عظيم عاد حقيرًا، وكم من جبار رجع ذليلاً، والذي جعل منه اللحظة قويًّا وخصمه ضعيفًا، قادر على تبديل الحال.

على الإنسان أن يرى عجزه في قوته، وضعفه في علوه وعظمته؛ فكائن حقير كالذباب يذيقه الهوان، فلا يقدر على رده ولا صده: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٧٣-٧٤).

بل ما هو أدق من ذلك وأصغر بملايين المرات، تلك الجراثيم والفيروسات التي تلج بدنه، وتتخلل أنسجته وعروقه، فتفتك بالخلايا، وتأكل الأعضاء الحيوية في البدن، حتى تقتل ذلك الإنسان العظيم، صاحب الملك والأمر والسلطان، فلا يغنيه شيء ولا يدفع عنه كل ما يملك من مال أو جند أو أعوان، والأطباء حيارى من قوة هذه الكائنات الدقيقة المجهرية، وضعف الإنسان والطب جميعًا -على مر القرون- عن مواجهتها أو اختراع طب ودواء يداويها.

انظر إلى الجيف وجثث الموتى، أي شيء هي بعد ما كان؟ أين صولتها وجولتها؟ أين جبروتها وظلمها وعدوانها، أين لسانها الذي لا يكل ولا يمل؟ أين ما بنت وشيَّدت ورفعت وبطشت؟ هل بقي منها شيء لم يعتريه فساد؟ فسبحان من أخبر عن نفسه فقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(غافر:١٦).

لولا الروح والعقل ما كُرِّم الإنسان، فإنه في جثته وجسده يستوي هو وسائر الحيوان والجماد، لكنه تميز عنها بروح عالية سامية باقية لا تفنى، وعقل يزين له الحكمة، ويبين له طريق الهدى من الضلالة.. فهذه متى رعاها وغذاها، قادته إلى الفوز والنجاة، وهي لن تسمو إلا بإيمان وعمل صالح، ولب ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(البينة:٥).

فهذا المخلوق العاجز في قدرته يكون ذا شأن وأثر في هذا العالم، متى سخر جوارحه لصلاح الروح والعقل، يفتح الله عليه من القدرة والعون ما يقدر به على فعل ما لا يفعله العشرات بل المئات من الناس: فإذا سبح سبحت الخلائق معه بتسبيحه، قال الله تعالى عن عبده داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩). وإذا دعا استجاب الله لدعائه، فأهلك العدو ونصر المؤمنين، وفتَّح الأبواب بالرزق العميم: "أبغوني ضعفاءكم، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم" (رواه البخاري).

وقد قال ﷺ: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره" (رواه البخاري)، وكان البراء بن مالك منهم؛ روى ابن الجوزي في "المنتظم" قال: إن البراء لقي زحفًا من المشركين، وقد أوجف المشركون في المسلمين، فقالوا: يا براء! إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرَّكَ، فأقْسِم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم. فمنحوا أكتافهم، ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجفوا في المسلمين، فقالوا: أقْسِم يا براء على ربك، فقال: أقسمت عليك يا ربي لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيي ﷺ. فمنحوا أكتافهم وقُتِل شهيدًا. ذكر ابن حجر في الإصابة أن ذلك كان يوم "تستر". ■

(*) جامعة أم القرى، مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

صالح القاضي*

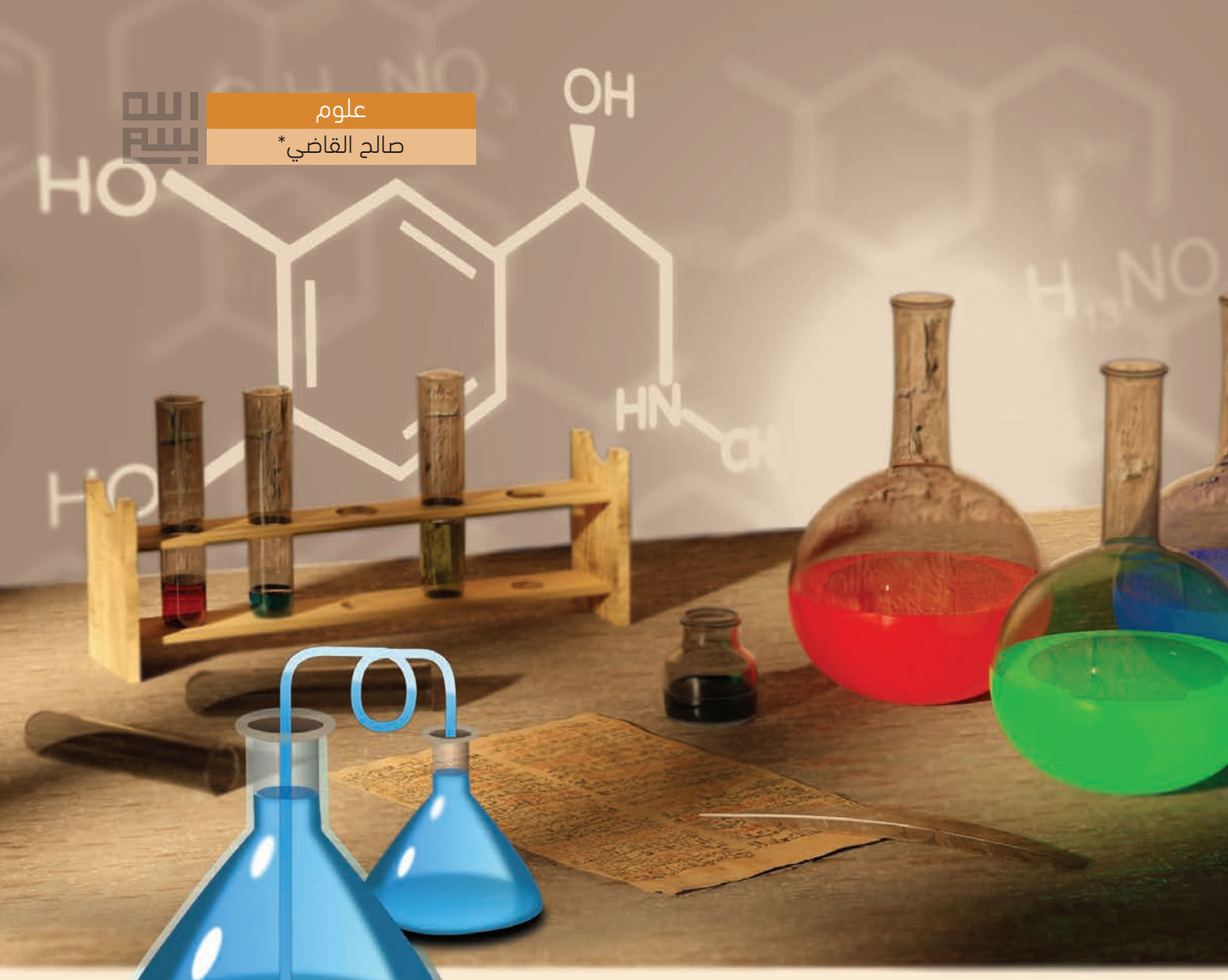

جائزة نوبل في الكيمياء
وإسهامات المسلمين

منذ عام ١٩٠١ ووفقًا لوصية الكيميائي السويدي "ألفريد نوبل" تتوزَّع جوائز نوبل في مختلف التخصصات، كالفيزياء، والكيمياء، والطب، والاقتصاد، والأدب، والسلام، حيث يتم الاختيار من بين الأعمال التي حصلت على تقدير عالمي في كل المجالات خلال ذلك العام، فيتم الإعلان عن الحاصل على الجائزة شخصًا كان أو مؤسسة. وبالتالي تعدُّ جائزة نوبل واحدة من أهم وأرقى الجوائز التي تمنح على مستوى العالم.

هذا وقد حصل العالم الكيميائي التركي "عزيز سنجار" على جائزة نوبل في الكيمياء عام ٢٠١٥، وهو يعد ثاني تركي يحصل على جائزة نوبل بعد الأديب التركي "أورهان باموق". وعندما تحدث الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي "وول

أ.د. أحمد زويل

ديورانت" عن إسهامات المسلمين في مجال العلوم قال: "يمكن أن يقال إن الكيمياء أصبحت علمًا على يد العلماء المسلمين، فلقد قاموا بالآلاف من الاكتشافات في هذا العلم وقاموا بالتجارب التأصيلية له"، وما قاله "ديورانت" يؤكده التاريخ أصلاً. أبدى المسلمون اهتمامًا بعلم الكيمياء وأخرجوه إلى حيز التنفيذ والتطبيق وأصَّلوا قواعده بعد أن كان نظريًّا بحتًا. هذا الاهتمام دفع الرازي إلى أن يقول: "أطلق لفظ المتفكر على المشتغل بالكيمياء".

والجدير بالذكر أن العلماء المسلمين ألفوا الكثير من الكتب التي تتناول اكتشافاتهم وتجاربهم، ومعظمها وصلتْ إلى يومنا هذا. وأشارت المستشرقة الألمانية المشهورة "سيجرد هونكه" -وكذلك "ميهوروف"- إلى مدى تأثير المسلمين على الغرب في علم الكيمياء حيث قالت: "لقد علَّم المسلمون الغربَ صناعة الورق، وصناعة الصابون، وصناعة الحرير والصرافة، وصناعة السماد الصناعي، ودباغة الجلود، وصناعة القماش القطيفة".

كما وضع العلماء المسلمون أسماء للمواد الكيميائية التي اخترعوها، وأصبحت تستعمل في كل أنحاء العالم، ليس فقط من قبل المختصين، بل من قبل العامة أيضًا.

يعتبر أول من عمل في علم الكيمياء من المسلمين هو الإمام جعفر الصادق وتلميذه خالد بن يزيد (٧٠٨م)، وأول كتاب ألف في هذا الباب لخالد بن يزيد الذي عُرف فيما بعد بـ"أبي الكيمياء المسلم". ولقد حمل راية هذا العلم من بعده جابر بن حيان (٧٢١-٨٠٥م) ووصلت إلينا بعض أعماله.

لقد عُرف جابر بن حيان في الغرب بـ"أبقراط الكيمياء"، وهو الذي ميز بين علم الكيمياء وعلم السيمياء، وترجمت أعماله للغة اللاتينية والفرنسية واستفاد منها كثير من علماء الكيمياء على مر التاريخ، ففي القرن الثامن الميلادي لم يكن أحد يفكر في تكوين الذرة وانشقاقها، وكان يذكر جابر بن حيان بأن الذرة تحمل في داخلها طاقة عظيمة، ويتم إخراج هذه الطاقة بتفتيت الذرة وانقسامها، لأنها لو حُرِّرت تَقْلب مدينة كبيرة -مثل بغداد- رأسًا على عقب وتدمِّرها تدميرًا".

ومن بعد جابر بن حيان جاء المفكر الكبير الفارابي (٧٨٠-٨٥٠م) وجمع في مؤلفاته خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء في عصره، ومن أهم ما ألف، كتاب ناقش فيه -ولأول مرة- مسألة الضغط الجوي. ثم جاء الرازي (٨٦٤-٩٢٥م) فقام بوضع نظام للتجريب الكيميائي، ولقد ذكر العالم في تاريخ العلوم "إ. ج. هولميارد" (١٨٩١-١٩٥٩م) بأنه المؤسس لعلم الكيمياء الحديث. وهذه بعض إسهامات الرازي في علم الكيمياء: الكحول الخام، حمض الكبريتيك، مادة الأنتيمون، واخترع علاجًا لمعالجة الإسهال، وتوصل إلى طريقة لتنقية المياه، واستخدام الأفيون ومادة الخشخاش في التخدير لتخفيف الألم أثناء المعالجات الخطرة، وقام بصناعة علاجات من تراكيب الزئبق، واخترع علاجًا للعين يؤخذ كحبوب أو عن طريق الشرب، كما توصل إلى صناعة الحلوى باستخلاصها من الفواكه. وللرازي ٢١ كتابًا وصل إلى يومنا هذا، ويعد كتاب "الأسرار" من الكتب التي اعتبرت كمرجع لجميع دارسي هذا العلم حتى القرن الرابع عشر. وهكذا قامت الحضارة الإسلامية -بدورها منارة لنشر العلوم-

hiragate.com

عن طريق كتابات جابر بن حيان والرازي وأمثالهم.

وفي القرن الحادي عشر بزغ نجم العالم الأندلسي المشهور أبي القاسم الزهراوي (٩٦٣-١٠١٣م)، وهو المخترع لجهاز التقطير الأوتوماتيكي، والإمبيق الأقرن، كما اخترع نوعًا خاصًّا من القوارير للتجارب الكيميائية. ومن الكيميائيين المسلمين أيضًا؛ الكندي، وأبو القاسم، والكاشي، ومسلمة بن مجريطي، وابن سينا، والبيروني، وابن الخطيب.. كل هؤلاء قدموا إسهامات كبيرة في علم الكيمياء.

وفي تاريخنا القريب أيضًا لدينا علماء فازوا بالسبق وتركوا أثرًا لا ينسى؛ منهم أحمد زويل (١٩٤٦-٢٠١٦) العالم المصري الذي حاز على جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٩٩، وهو بذلك يعدُّ أول عالم عربي مسلم يحصل على تلك الجائزة، فهو طوَّر جهاز الفيتوسكوب الذي يستخدم في تصوير عملية الربط الجزئي للمواد الكيميائية. ويعتبر أحمد زويل رائد علم كيمياء الفيمتو، ولقب بـ"أبي كيمياء الفيمتو"، وهو أستاذ الكيمياء وأستاذ الفيزياء في معهد كاليفورنيا للتقنية.. ومنهم الأستاذ الدكتور "أوكتاي سنان أوغلو" (١٩٣٥-٢٠١٥) المؤسس لمجال الكيمياء النظرية في جامعة "يال" الأمريكية، حيث قام خلال عمله هناك بالبحث في "نظرية الذرة والجزيء متعدد الإلكترون"، و"نظرية المذيبات"، و"نظرية منظومة رد الفعل الكيميائي"، و"الميكرو تروموديناميك"، و"نظرية تكافؤ قذيفة التفاعل"، وحصل على جوائز علمية محلية وعالمية عديدة.

أما الدكتور عزيز سنجار الذي تحدثنا عنه في بداية المقال فقد حصل على جائزة نوبل في الكيمياء عام ٢٠١٥، وشارك مع عدد من العلماء في اختراع علاج للسرطان ولقبوه بـ"الساعة الإقاعية"، كما قام بعدة أبحاث عن الحمض النووي (DNA)، منها "كيف تقوم الخلايا بإصلاح الحمض النووي والحفاظ على المعلومات الجينية؟"، وكذلك "النظام الذي تقوم الخلية من خلاله بإصلاح ما أصاب الحمض النووي من الأمواج فوق البنفسجية".

وعندما وُجه للدكتور محمد عبد السلام الباكستاني سؤالاً (وهو أول مسلم يحصل على جائزة نوبل في

أ.د. عزيز سنجار

العلوم عن أبحاثه في الفيزياء عام ١٩٧٩): هل يمكن للمسلمين أن يعيدوا مجدهم العلمي من جديد كما كان أجدادهم؟ كان جوابه: "نعم وبكل تأكيد، ولكن هناك بعض الشروط التي يجب أن تتوفر فيهم؛ فعلى المجتمع المسلم أن يتمسك بالعلم بكل ما أوتي من قوة، وأن يعوا بأن العلم لا يتناقض مع قيمهم ومبادئهم الدينية أبدًا، بل إنهما مكمِّلان لبعضهما البعض".

إذن، لا بد للمسلمين أن يسعوا لإعادة صفحات تاريخهم المشرق، ويقودوا زمام العلم في كل أنحاء العالم كأجدادهم.. لا بد أن يدركوا أن سبب تأخُّرهم هو ابتعادهم عن تعاليم قرآنهم التي تنص على أن المعرفة هي أسمى ما يمكن أن يحققه الإنسان.. ومن ثم أن تدفعهم الغيرة على دينهم وقيمهم، إلى الجدِّ والاجتهاد، فيتمكنوا من تحقيق إنجازات ومشاريع جبارة في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

د. محمد السقا عيد*

الإلهام في عالم الحيوان

لو قلَّبنا نظرنا بين السماء والأرض، لرأينا من عجيب الصنع في فضاء الكون من خلال السيارات التي تسبح فيه، وفي الأرض من خلال تكوينها والتوازن المدهش في نظامها. وإن من ينظر في عالم الحيوان من خلال حياته وغرائزه وإلهاماته، فسيرى بدائع الصنع أيضًا في هذا العالم الواسع العجيب، مما لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق قدرة قاصدة إلى هذه النتائج التي سنذكرها، بما فيها توجيه لهذه الحيوانات من إلهامات تتجلى فيها

هذه القدرة. فالإنسان يملك التعقل وهي عملية حسابية مدروسة، فيها المقدمات والنتائج، وهي مناط التكليف والحساب والمساءلة.. ويملك الغريزة التي تجعل طفلاً وليدًا يلقم الثدي ويبكي ويخاف ويفرح ويتألم.

إن الحيوان يعتمد على الإلهام في طعامه وشرابه وتزاوجه، وفي معرفة العدو والصديق، وفي تقدير المخاطر وتدبير كيفية تجاوزها.. ولقد سماه الله تعالى وحيًا: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨). الإلهام هو أبلغ دليل على وجود الملهِم، وإن كافة الكائنات الحية لتأتي بأعمال لا إرادة لها فيها، إنما تقوم بما نسميه "إلهامًا". فلا بد من وجود الملهِم إذن. وفيما يلي بعض عجائب الإلهام في عالم الحيوان.

بعض مظاهر الإلهام في عالم الحيوان

هناك بعض الأنواع من العناكب المائية تعمل ما يَحار فيه العقل الإنساني رغم ما أوتيه من طاقة، إن هذا النوع من العنكبوت إذا أرادت أن تلد تصنع لنفسها عشًّا على شكل بالون من خيوط بيت العنكبوت وتعلقه بشيء ما تحت الماء. ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها، وتحمله إلى الماء ثم تطلقها تحت العش، ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش، وعندئذ تلد صغارها، وتربيها آمنة عليها من هبوب الهواء. كما يتقن هذا النوع من العنكبوت عدة فنون من النسيج القابل للتماسك وسط الماء، والدقة الهندسية والتركيب، والملاحة الجوية.

ومن أروع الأمثلة على الإلهام، ما نراه في حيوان الاكسيلوكوب الذي يعيش منفردًا في فصل الربيع، ومتى باض مات؛ إذ الأمهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذائها لمدة سنة كاملة، لذلك نرى الأم تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية وتحشو بها ذلك السرداب، فمتى فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة كاملة. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا، هو: مَن أودع في هذا الحيوان تلك الرحمة، ومن ألهمه ذلك الحنان؟

ومن المذهل في هذا الباب، أن الزنبور يصيد الجندب النطاط وينخزه بإبرته في مكان مناسب، بحيث يفقده وعيه مع بقائه حيًّا كنوع من اللحم المحفوظ، فلا يكثر السم فيه لئلاَّ يميته أو يسمم لحمه الصغارَ إذا أكلوا منه، ولا يقلله حتى يبقى محتفظًا بوعيه فيفر، وبعد ذلك يحفر له حفرة في الأرض، ثم تأتي أنثى الزنبور وتضع بيضًا في المكان المناسب بالضبط، ثم تغطي هذه الحفرة وترحل، ثم تموت بعد أن أمَّنت وسيلة الحياة لأولادها وهم صغار لا يستطيعون الحركة. فمن الذي علمها ذلك يا ترى؟ وما هي الفائدة المادية والمعنوية التي سوف تعود على أمّ من صغار لن تراهم لكي تقوم بكل هذه التضحيات؟ لو بحثنا عن إجابة فلن نجد إلا إجابة واحدة أنها مفطورة على ذلك.

ومن الملفت للنظر والانتباه أن الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عامًا في أقليم نيو إنجلاند، يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة، ويظهر بالملايين في ٢٤ مايو من السنة السابعة عشرة تمامًا، بحيث يضبط مواعيده للظهور في اليوم تقريبًا بهداية يعجز عنها الإنسان لولا أنه يستعمل التقويم.

ولعل من أعجب ما اكتشفه العلم، أن كل إناث الطير -من أي نوع كانت- تضع من البيض عادة نفس العدد الذي تضعه في كل بطن؛ فبعضها يضع من ثلاث بيضات إلى خمس، وبعضها من خمس إلى ست.. غير أنه قد لوحظ أنه إذا رُفع من تحتها بعض بيضها، وضعت بدلاً منه لتساويه في العدد، وهذه القدرة على إنتاج البيض تكاد تكون عجيبة لا يصدقها العقل.

ذكرت مجلة "ذي أوك" (AUC Times Magazine) أن بعض علماء الطير عمدوا إلى طائر النقار، فأخذوا من وكره بيضه ما عدا واحدة، وظلوا يكررون أخذ البيض ليروا إلى متى يظل يضع من البيض بدل ما أُخِذ، فوضع الطائر الذي حيره الأمر ٧١ بيضة في ٧٣ يومًا.

والجهد الذي يعانيه الطير في جلب الطعام لصغاره وتغذيتهم، لأمرٌ يعلمه كل من رأى الطير وصغارها.

يقول الدكتور "أرثر ألن" من جامعة "كورنل" بأنه تحرى الدقة في عدد رحلات أنثى عصفور "العصو" تطلب الطعام لتغذية صغارها، فوجد أنها أطعمتها ١٢١٧ مرة ما بين الفجر ومغرب الشمس. وأما كيفية تمييز الأم المحتاج إلى التغذية من فراخها، فهو من دلائل ما أودعه الخالق من أسرار وإلهام. فإن النظام الدقيق الذي ركب في حلق كل فرخ، يقضي بأنه إذا امتلأ أبطأ في ابتلاع ما يزق به، فما على الأم عند ذلك إلا أن تزق الذي يفتح لها منقاره، ثم تراقب العاقبة بدقة، فإذا رأت الطعام لا ينزلق في الحلقوم، امتصته ثانية وزقت به الذي يليه، أي إن الذي يبتلع الطعام من فوره، هو أفرغها من الطعام جوفًا.

تقليب البيض للتفريخ

خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووُضع في جهاز التفريخ، نصحه فلاح أن يقلب البيض حيث رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمته، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة، واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة. أعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح، أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيض، وعندما جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريج.

والتعليل العلمي لتقليب البيض هو ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، وإذا بقي بدون تحريك تتمزق أوعيته، ولذلك فإن الدجاجة لا تكتفي بتقليب البيض في اليوم الأول والأخير. أَوَليس في هذا ما يدل على أن الدجاجة تقلب البيض عند الحضانة

hiragate.com

بإلهام عجز عن معرفته الإنسان بالمحاكاة بالرغم من كثرة ما يعلمه؟

حماية بيض الحشرات من غوائل الجو

من قديم الزمان تصنع الحشرات لبيضها ما يشبه الزجاجة المفرغة التي تحفظ فيها السوائل على درجتها من الحرارة، وتنتفع بها في حماية بيضها من عوادي الجو المتقلب، فهي تحيط البيض بكتلة هشة خفيفة من الفقاعات، وما تحوي هذه الفقاعات من هواء يقوم مقام الطبقة المفرغة حول الزجاج فيقلّ تسرب الحرارة والبرودة إلى داخلها، ومهما اشتدت حرارة الجو أو قرص البرد، نرى البيض داخل هذه الغلالة على درجة ثابتة وبمنجاة من تقلب الجو.

حفظ اللحم طريًّا

تستطيع طوائف من العناكب والزنابير أن تحفظ اللحم أسابيع فلا يفسد، دون الاستعانة بما تفتقت به حيل الإنسان من تبريد أو تثليج.. أي إنها تحفظ صيدها من الحشرات التي تزيد على حاجتها بطريقة لم يستطع الإنسان أن يصل إليها، فهي تفرز في أبدانها مادة تخدرها دون أن تميتها فيبقى غذاؤها دائمًا طريًّا طازجًا، بل حيًّا لحين استهلاكه، ولم يتمكن العلم حتى الآن من تخدير ذبيحة الإنسان والإبقاء عليها بحياة كاملة دون موت لحين استهلاكها.

تكييف خلية النحل

يلزم ليرقات نحل العسل حفظ الهواء على درجة ثابتة من الحرارة والتهوية التامة لتظفر بأسباب الحياة والنمو في الخلية، ومن أجل ذلك فثمة طائفة من النحل لا عمل لها في الخلية إلا إجهاد عضلاتها لتولد حرارة في أبدانها لتشع في أرجاء الخلية، بينما هناك طائفة أخرى تجثم على الأرض وتحرك أجنحتها بسرعة معينة محكمة لتوليد تيار من الهواء يكفي الخلية، فتكون بذلك مكيفة الجو هواءً وحرارةً.

زراعات النمل

يذكر "رويال ديكنسون " أحد علماء التاريخ الطبيعي في

كتابه "شخصية الحشرات"، أنه ظل يدرس مدينة النمل حوالي عشرين عامًا في بقاع مختلفة من العالم، فوجد أن كل شيء يحدث في هذه المدينة بدقة بالغة وتعاون عجيب، ونظام لا يمكن أن نراه في مدن البشر، علاوة على الهدوء والسكون.

ويشير العالم المذكور إلى أن النمل زرع مساحة غطَّتْ ١٥ مترًا من الأرض، كما أنه وجد جماعة من النمل تقوم بحرثها على أحسن ما يقضي به علم الزراعة؛ فبعضها زرع الأرز، وجماعة أزالت الأعشاب، وغيرها قامت لحراسة الزراعة من الديدان.

ولما بلغت عيدان الأرز تمام نموها، كان يرى صفًّا من شغالة النمل لا ينقطع يتجه إلى العيدان، فيتسلقها إلى حب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة، وتنزل بها سريعة إلى مخازن تحت الأرض. وقد طلى العالمُ أفرادَ النمل بالألوان، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائمًا إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز.

ولما فرغ من الحصاد، هطل المطر أيامًا وما أن انقطع حتى أسرع إلى مزرعة النمل ليتعرف أحواله، فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل والعمال والأعمال، ووجد النملة تخرج من بيتها للشمس وتضع حبتها لتجف من ماء المطر. و ما أن ولّى الظهر حتى جف الأرز وعاد الشغالة به إلى مخازن تحت الأرض. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

hiragate.com

إنما أنت ممر

على الإنسان أن يبذل في سبيل الله كلَّ ما أوتي من جهد، ولكن عليه أن يلزم حدّه في جنب الله، ويعيَ منزلته، ويكون في يقظة وحذر، لا يتعدى حدوده ولا ينسب لنفسه ما ليس منها. عليه ألا يَنسب الجمال إلى نفسه ألبتة، وأن يستحضر دائمًا أنه ليس مظهرًا للجمال، بل هو ممر له على الأكثر؛ لأننا لسنا أصل الجمال، أصل الجمال هو الله، وليس الجمال ملازمًا لذاتنا، بل يبدو أحيانًا ويختفي أحيانا أخرى، مثل أشعة الشمس تنعكس على فقاعات الماء، الأصل هي الشمس، أما الفقاعات فهي ممر لنور الشمس لا غير. لا يليق نسبة الجمال إلا بصاحب الجمال. أجل، لسنا مصدر الجمال، وجمالنا ليس نابعا منا، بل منه سبحانه. فمن كان هذا فكره، بارك الله له في أعماله، وأصبح بطلَ الآية التي تقول:﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأفاض الله عليه من نعمه دون انقطاع.

حين يتوقف القلب من التأثر

إذا سمع المؤمن الحقيقي أحدَهم يتطاول بالكلام على الذات العلية عز وجل أو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلام يكاد قلبه يتوقف من شدة التأثر. مع ذلك يضبط عواطفه، وينتظر فرصته، ويحسن التعامل مع الموقف بأدب وحكمة ولطف إكراما للحقيقة التي ينبغي أن تصل إلى مكانها، يقول: "هذا هو الأدب الذي علَّمَنا إياه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، إنني أبتغي رضاه، ورضاه في إخلاصي لسنته في التعامل مع هذه الحالات"،

وعندما تحين فرصته ينطلق في إقامة الحجة، ويبدع في بيان الحقيقة بأسلوبٍ هيّن ليّن حيكم ينبض محبة ورحمة تخترقان القلوب لا محالة.

التطلع إلى قمة الأنبياء

لقد اختص الله الأنبياء بصفات الأتمية والأكملية، لأن دينا أكملَ وأتمَّ لا يمكن أن يحمله إلا عظماء تشبّعوا بصفات الأتمية والأكملية. إن أمانة الدين الأتم ثقيلة لا تطيقها كواهل هزيلة. وإذا أراد السالكون في درب الأنبياء أن يكونوا أهلا لحمل أمانة الدين الأتم الأكمل، فعليهم أن يكونوا كالأنبياء يتأسوا بهم؛ عليهم أن يضرعوا إلى الله كي يمنحهم أخلاق الأنبياء، أن يطلبوا همة كهمة الأنبياء، عزيمة كعزيمة الأنبياء، ربانية كربانية الأنبياء، حكمة كحكمة الأنبياء، سعيا كسعي الأنبياء، شوقا كشوق الأنبياء، أي أن يتطلعوا إلى الأتمية والأكملية بإلحاح في تمثّل معاني الإيمان والإسلام والإحسان. أجل، لا يجوز للإنسان أن يطلب النبوة من الله، فالنبوة انتهت مع النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، لكن يجوز أن يطلب التخلقَ بأخلاق الأنبياء، يمكنه أن يقول: اللهم نمِّ مواهبنا، نمّها أكثر فأكثر، لا حدود لعطائك، تكرم علينا بقابليات لا نهاية لها، وسِّع من قابلياتنا على الدوام، ووفِّقْنا إلى تسخيرها في خدمة دينك ورسالة أنبيائك". بالتأكيد إن قاماتنا لا ترقى إلى أن تكون "ظلا" لتلك القامات السامقة والمقامات السنية التي أحرزوها، ناهيك عن أن تقترب من "أصلها"، مع ذلك على المؤمن أن يكون عالي الهمة مثلهم، يصوِّب نظره إلى الذرى –مثلهم– في علاقته مع الله، ينشد الغايات العلا بصدق وإلحاح حتى يستطيع أن يؤدي الأمانة حقها.

قبل أن يضيع الفاني والباقي

الأمراض الروحية أخطر على الإنسان من الأمراض المادية. الأمراض المادية توجع بدن الإنسان، وأقصى ما تفعله به أن تقضي على حياته الفانية. أما الأمراض الروحية فلا تقف عند إخماد حياة القلب في هذه الدنيا الزائلة، بل تمتد إلى تدمير حياته الأبدية. فالأمر جد خطير، يتطلب تبصرا بالفيروس في بدايته وعدم إتاحة الفرصة لتعاظمه. ألا يتخذ الناس تدابير وقائية للتحصن من فيروسات نزلة البرد في الشتاء؟ كذلك عليهم أن يأخذوا حذرهم من الفيروسات الروحية مسبقا قبل أن تسري فيهم فتخمد دنياهم وعقباهم. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش. هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ الخاصة.

حمزة الشافعي*

رجال أمن الحضارة الإنسانية

رجال أمن الحضارة الإنسانية رجال من نوع خاص. هم طبعًا ليسوا كما قد يُعتقد من العنوان رجال الأمن العاديين الذين ينتشرون في التخوم لحماية الأوطان من أطماع التوسع الخارجية و الإرهاب والتهريب.. بل هم رجال أمن الحضارة الإنسانية الذين يدافعون عن الإنسان وقيمه النبيلة وتراثه المادي واللامادي، في إطار وطن واحد وشاسع اسمه "الإنسانية" (Humanity).

الانتماء إلى هذه الفئة من رجال الأمن، لا يتطلب التوفر على جنسية دولة (State) محددة، أو عدم استيفاء سن معينة، أو امتلاك بنية جسمانية بمواصفات دقيقة، أو بلوغ مستوى دراسي خاص.. كل ما في الأمر هو القدرة على الدفاع عن الحضارة الإنسانية أينما وُجدت وكلما دعت الضرورة لذلك، دون نرجسية (Narcissism) وتعصب وتحيز لأي قطر مهما كانت قوة أسطوله من رجال الأمن العاديين وعتاده العسكري وبالرغم من تطوره وامتداده الجغرافي. رجال أمن الحضارة الإنسانية لا ينتظرون تشجيعًا أو وسامًا أو تصفيقًا، لأن التاريخ الذي

يكافئ المخلص ويكشف عورة المزور وإنْ أخذ ذلك عقودًا وقرونًا من الزمن، بلا شك سيمنحهم وسام الوفاء والخلود في ذاكرة الإنسانية جمعاء.

رجال أمن الحضارة الإنسانية شعراء ملتزمون، ارتموا تضحية وإيثارًا في بحر الكلمة الصادقة والمعبرة، وأحسنوا استعمالها كوسيلة موضوعية (Objective) مجردة من النمطية (Streotyping) والأحكام القبْلِية الجاهزة (Prejudice) من أجل بناء أو إعادة بناء بقايا متفرقة من الحضارة الإنسانية.. بقايا تنتظر الترميم والإنقاذ من براثن الإهمال ولعنة النسيان وشدة هول الهجران، وأخرى تتطلع للبعث والإحياء جراء موت عانت ويلاته، بعدما كانت في ماض غابر تعج بالحياة والإبداع والإشعاع الحضاري والثقافي الإنساني.

رجال أمن الحضارة الإنسانية كتَّاب وباحثون ومثقفون، اتسموا بالعضوية (Organicism) والموضوعية (Objectivity)، همهم الوحيد تدوين وحفظ تاريخ الحضارة الإنسانية العالمية كَكُلية (As an entity) في ملكية الإنسان العالمي (Global Man)، دون قرصنة أو خلق تمايز أو احتقار لمكون واحد من مكونات الحضارة الإنسانية على أساس جغرافي، وعقائدي وفكري وثقافي وعرقي.. هم حقًّا رجال متنورون ومتحررون، أماطوا ولا زال شق منهم يميطون اللثام عن حقائق وأحداث وجوانب عدة تهم الحضارة الإنسانية، وذلك بالنبش المُعَقلن والمنهجي بواسطة أدوات الحياد (Neutrality) والموضوعية والدقة (Eexactitude) والعلمية (Scientificity) والتسييق (Contextualization).

رجال أمن الحضارة الإنسانية رسامون ونحاتون، وظفوا كل طاقاتهم الإبداعية (Creative) والتخييلية (Imaginative) لخدمة الحضارة والثقافة العالميتين، سعيًا منهم للإظهار، والاحتفال بالكون (Universal) المشترك بين كل شعوب الأرض سواء الحاضرة والغابرة، كما نقبوا بطرقهم الفذة، واشتعلوا بوسائلهم البسيطة، والمشكلة أساسًا من ريشة وصباغة وزيت وطين وألوان وخشب وأحجار، لكشف المحلي (Local) لدى تلك الشعوب المتعددة والمتفرقة في الزمان والمكان، قصد نقله والتعريف به على نطاق أشمل، ليُسجل ويُحفظ في رصيد التراث الحضاري الإنساني العالمي، بُغية

رجال أمن الحضارة الإنسانية رسامون ونحاتون، وظفوا كل طاقاتهم الإبداعية والتخييلية لخدمة الحضارة والثقافة العالميتين، سعيًا منهم للإظهار والاحتفال بالكوني المشترك بين كل شعوب الأرض.

كَوْنَانِيته/كَونَتِه (Universalization/Worldization)، بعدما كان يرزح تحت قيود المحلية (Localness) والانحصارية (Limitedness/Restrictedness) والتقوقع والتصدف.

رجال أمن الحضارة الإنسانية دَعَوَات وابتهالات (Supplications) تُرفع في الصلوات اليومية المفروضة، وفي النوافل، وفي جوف الليل، من طرف بنيات تفكير مختلفة وهائلة، بواسطة كل اللغات الوطنية المعترف وغير المعترف بها، والمعروفة والمجهولة، والمُنْكَرَة لحفظ الحضارة الإنسانية من جبروت وتسلط المخربين، ودعاة العنف ومعتنقي مذهب القضاء على الإنسان والحياة والإبداع والعقل والتعايش (Cohabitation). إنها دعوات تُرفع على رجال "لا أمن الحضارة الإنسانية"، والذين يدورون في فلك الجهلة والساديين والاقصائيين والأنانيين واللاحضاريين اللاإنسانيين (Anti/non-Civiliza-tional, Anti/non-Humanistic).

ختامًا.. رجال أمن الحضارة الإنسانية، ينتشرون في كل الأزمنة والأمكنة (Across all times and places)، كما ينتشرون داخل أقطارهم وخارجها على حدٍّ سواء، غير آبهين بالحدود التي تفرق البلدان ما داموا ينتمون لوطن أرحب وأشمل وأرحم اسمه "الإنسانية".. هم أيضًا رجال لا يمكن التعرف عليهم بلون البدلات التي يرتدونها، والقبعات والشارات والمراتب التي يحملونها، أو بأماكن وجود ورباط محددة، أو بطرق تدريب خاصة.. إنهم رجال أمن من نوع خاص، غايتهم هي الدفاع عن الحضارة الإنسانية العالمية بأكملها، وعن مهندسها وصانع أمجادها الذي هو الإنسان (Man) داخل وطن يحتضن الجميع اسمه الإنسانية. ■

(*) كاتب وأديب مغربي.

hiragate.com

أ.د. عاطف يورلماز*

حيوانات تستشعر الزلازل

لم يستطع الإنسان رغم التقدم التكنولوجي الباهر، الحدَّ من تأثير الزلازل، ولا حتى التنبؤ بوقت حدوثها بصورة واضحة. وما زال العلماء في أبحاث مستمرة يحاولون فهم هذه الظاهرة الطبيعية المدمرة، وقد اكتشفوا مؤخرًا أن ثمة حيوانات تملك أعضاء حساسة للغاية، أو لديها قابلية -لا نعرف منبعها- تمكنها من استشعار الزلازل قبل حدوثها.

هناك كثير من الحيوانات الأليفة، مثل الكلاب والقطط والأبقار والدجاج والأرانب وبعض الحشرات والطيور، وكثير من الحيوانات البحرية، تملك القدرة على استشعار الزلازل قبل وقوعها، إلا أن ما يعتري هذه الحيوانات من اضطراب قبل وقوع الزلزال، يحدث معها أيضًا في الأوقات العادية، مما يجعل البحث غير منضبط وغير كاف لتثبيت وقت الزلزال وتحديد موقعه.

النمل والثعبان

إن تسليط الضوء على هذين المخلوقين، يرجع لأسباب عدة؛ منها تمتعهما بخصائص مشتركة ومفيدة حول استشعار الزلازل، فكلاهما أصمّ ولا يقدران على سماع الموجات الصوتية الهوائية التي تمرّ عليهما، ولكن الغريب في الأمر، أنهما يستشعران الأصوات والموجات الصادرة من باطن الأرض؛ كالأمواج الكهرومغناطيسية، أو

الغازات التي تتصاعد من باطنها.

وهذا يجعلنا نسترجع ما ذكره القرآن في قصة النملة التي أحست بقدوم جيش النبي سليمان عليه السلام، وأنذرت قومها بالخطر القادم، وكأن هذه النملة استشعرت الاهتزازات الأرضية التي أحدثتها الخيول. وانطلاقًا من ذلك، فإذا لوحظ أن النمل يخرج من جحوره بطريقة غير طبيعية، ثم يسير بصف واحد أو بشكل تجمعات متكتلة، ثم لوحظ أثناء ذلك موت الكثير منها دون سبب؛ فالأرجح أن ذلك نذير للزلزال.

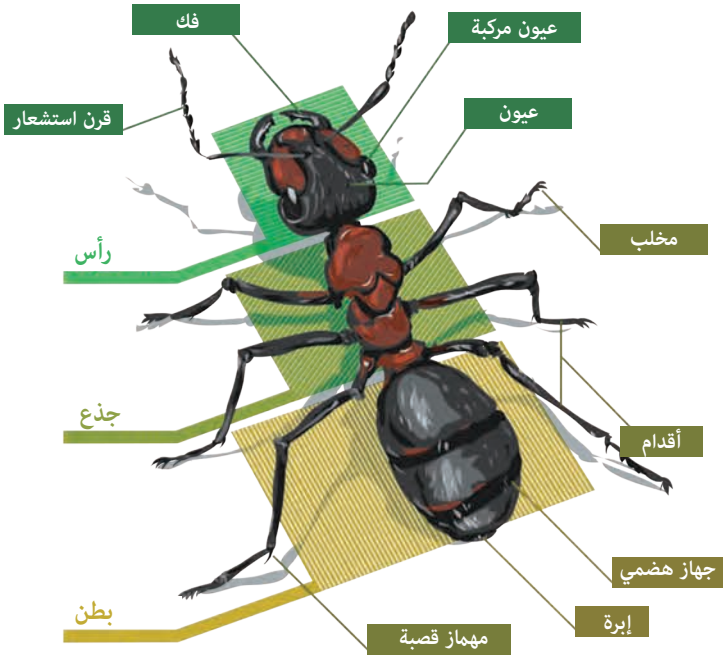

جسم يوحي بمركز اتصال إلكتروني

على الرغم من صغر حجم النملة، إلا أن تكوينها يستحق الاهتمام، إنه تكوين يشبه إلى حد كبير مركز اتصال إلكتروني. فالنملة لديها مستقبلات حساسة لكثير من الإشارات والموجات، حيث تقوم باستقبال البيانات الموجية وتحللها مباشرة. وفضلاً عن امتلاكها عينين جانبيتين، فإنها تملك أيضًا ثلاثة عيون صغيرة تتموقع أعلى رأسها، ومن خلال هذه العيون الثلاثة تتمكن النملة من تحليل قوَّة الضوء وشدته، وتتمكن كذلك من تحديد الاتجاهات القطبية، ومن رؤية ١٨٠ درجة من محيطها. كما تتمتع النملة بقَرنَي استشعارٍ في منتصف رأسها تستخدمهما لتحليل المواد الكيميائية والتمييز بينها وكذلك للاستطعام وشم الروائح.. ولديها مستقبِل خاص يقيس الرطوبة.. بالإضافة إلى أن هناك بعض أنواع النمل ضمرت أعينها لكثرة اعتمادها على القرنَين الاستشعاريين.

إن كنا نمتلك -نحن البشر- عدسات للرؤية، فنملة الصحراء أيضًا لديها العديد من العدسات؛ يذكر البروفيسور "روديجر وهنر" مع فريقه من جامعة ميونخ، أنهم اكتشفوا عدسات تستطيع النملة من خلالها رؤية الموجات فوق المغناطيسية الموجودة في صفحة السماء، وتستطيع من خلال هذه العدسات -كذلك- تحديد نقاط السماء المحتوية على موجات كهرومغناطيسية، أما عدد هذه العدسات في هذه النملة الصغيرة الحجم فيبلغ ٨٠ عدسة، وازداد الفريق دهشة عندما وجد أن واحدة من هذه العدسات ترى بزاوية ١٨٠ درجة، أما الباقيات فترى بزاوية ٢٧٠ درجة. والملفت للانتباه أن النملة لا تستطيع رؤية الشمس، ولكن وُهِبتْ بدلَ ذلك بمستقبِل خاص في عينها يمكِّنها من معرفة موقع الشمس، ومن تحديد الاتجاهات وقياس المسافة التي قطعتها.

شعيرات اللمس الحساسة

إن جسم النملة مُدرَّعٌ بطبقة سميكة مصنوعة من مادة "الكيتين"، كما أن هذه

الطبقة مكسوة بشعيرات حساسة للغاية (الشكل ١). هذه الشعيرات ولا سيما الموجودة على قرنَي الاستشعار وعلى أسفل الأقدام، هي الأكثر حساسية بين الشعيرات الأخرى، فهذه الشعيرات مرتبطة بمستقبلات الاستشعار الجلدية، لتقوم بإرسال الإشارات مباشرة عند أدنى اهتزاز يقع على وجه الأرض، ومن خلال الخلايا الموجودة أسفل هذه الشعيرات المرتبطة بالجهاز العصبي الليفي يقوم جسم النملة بإرسال رسائل كيميائية لتُدرِك النملة ما يجري حولها، وقد تمكّن بعض هذه الشعيرات -المتجمّعة بكثافة في بعض أجزاء الجسم- من استشعار النملة بالموجات الصوتية (الشكل ٢). وبالتالي يوجد ملايين الشعيرات في جهاز الاستشعار الكائن في رأس النملة، مما يمكّنها من تحليل المواد الكيميائية ودرجات الإضاءة. وثمة شعيرات موجودة أسفل فم النملة وأسفل أقدامها تقوم بوظيفة أخرى؛ وهي توصيل الإشارات إلى الدماغ المحتوي على ٥٠٠ ألف خلية عصبية، مما يسهل على النملة الإحساس بالزلازل والرجات الأرضية.

في جامعة "ديسبرج اسن" قامت الدكتورة "جبريالا بيربريتش" مع فريق متخصص، بإجراء أبحاث عديدة بين عامي ٢٠٠٩-٢٠١٢، حيث قاموا بجلب ١٥ ألف نملة حمراء، ثم قاموا ببناء مستعمرات لهذا النمل في المناطق الأكثر تعرضًا للزلازل بألمانيا، وراحوا يراقبون النمل ليل نهار من خلال كاميرات.. وبعد تحليل تصرفاته لاحظوا أمرًا عجيبًا؛ وهو أن النمل يقوم بأعماله الروتينية خلال النهار، وفي المساء يدخل بيوته للاستراحة، إلا أنه عندما يحس بزلزال يمضي الليل أكمله خارج بيوته، وفي حال انتهاء الزلزال يعود لتواصل أعمالها الروتينية. والأكثر غرابة أن قوة الزلزال إذا كانت أقل من ٢ درجة على مقياس ريختر، لا يغير النمل نمط حياته لإدراكه عدم الخطورة.

ووفقًا للدكتورة "بيربريتش"، فإن النمل الأحمر لديه مستقبل استشعاري لثاني أوكسيد الكربون ومستقبلات كيميائية، يقوم من خلالها بقياس الغازات المنبعثة من أعماق الأرض والتغيرات الواقعة في باطنها، والمتزامنة مع الزلزال، كما أن لديه مستقبلات خاصة يستشعر من خلالها التغيرات المغناطيسية للأرض، بالإضافة إلى وجود مستشعرات حرارية تستطيع من خلالها الإحساس بالتغيرات التي تعتري الموجات الراديوية، وبهذه الطريقة تتمكن النملة من الإحساس بالزلازل.

من غير يد ولكنه حساس

لا شك أن موضوع الحيوانات التي تستشعر الزلازل جذب انتباه علماء الصين، فأجروا أبحاثًا عديدة في هذا الباب.. فمنذ عام ١٩٧١ وهم يؤسسون مراكز مراقبة في المناطق الأكثر عرضة للزلازل. ومن خلال المراقبة تبيّن لهم أن هناك الكثير من الحيوانات تملك موهبة الشعور بالزلازل قبل وقوعها، حيث تقوم هذه الحيوانات بتصرفات غريبة على غير عادتها، مثل الفئران والأسماك والثعابين.. حتى إنهم وجدوا أن بعض هذه الحيوانات تشعر بالزلزال قبل وقوعه بعدة ساعات والبعض الآخر بثلاثة أشهر.

وفي ديسمبر ١٩٧٤ لاحظ العلماء أن الثعابين تنتحر؛ إذ تخرج من بياتها الشتوي وتسير تحت الجليد حتى تتجمد وتموت. ولاحظوا أيضًا أن الفئران تخرج من جحورها على شكل مجموعات وتنتشر في الشوارع، وذلك دفعهم إلى التنبؤ بوقوع زلزال قوي ومدمر، وفعلاً وقع الزلزال في فبراير ١٩٧٥ في مدينة "هاي تشينج" بقوة ٧,٣ على مقياس ريختر، بيد أن الدولة كانت قد أخذت حذرها وأَخْلتْ حوالي مليون شخص من المدينة قبل وقوع الزلزال، وهذا بطبيعة الحال قلل من الخسائر. ولو لم تقم السلطات بأخذ التدابير اللازمة لكان من المتوقع أن يتوفى في هذا الزلزال أكثر من ١٥٠ ألف إنسان.

ولقد ذكر "فريدمان فريند" الذي يعمل في وكالة ناسا، والمتخصص في العلوم الجيوفيزيائية، بأنهم توصلوا إلى وجود شحنات كهربائية تطلقها الأرض نتيجة الاحتكاكات بين اللوائح التكتونية، فهذه الشحنات عندما تنطلق في الهواء أو الماء، تكون سببًا في ظهور مواد مختلفة؛ فمثلاً، يظهر في الماء مادة بيروكسيد الهيدروجين، ويُعتقَد أن هذا التغير الكيميائي سيؤثر على الرواسب العضوية في ماء البحيرات وسيؤدي إلى

hiragate.com

hiragate.com

الشكل ١: رسومات عن شعيرات اللمس في جلد النملة.

تسمم وموت الحيوانات الموجودة فيها.

هذا وقد وجد الباحثون أن الثعابين تتمتع بقابلية الشعور بالأشعة تحت الحمراء عن طريق فجوة الأنف المتموقعة بين العينين، فهي بمثابة كاميرا حرارية. ولعل هذه الأعضاء تساعد الثعابين على إدراك التغيرات أو صدمة الموجات الكهرومغناطيسية الضعيفة التي تظهر في تلك المنطقة، مما يمكِّنها من معرفة وقوع زلزال قوي قبل حدوثه.

وفي دراسة أجريت عام ١٩٩٣، أثبت الفيزيائي "فريدمان فرند" أن الانزلاق والاحتكاك بين الطبقات التكتونية، يؤدي إلى انطلاق موجات من الأشعة تحت الحمراء في مكان وقوع الزلزال. وقد سجَّلتْ أقمار "تارا" الصناعية التابعة لوكالة ناسا من الفضاء حالة غير طبيعية في الأشعة تحت الحمراء في الهند، وذلك قبل الزلزال الذي وقع في ٢١ يناير ٢٠٠١ في منطقة "بهوج"، والذي بلغتْ قوته ٧,٩ على مقياس ريختر.

كان يُعتقَد في القديم أن الثعابين لا تملك قابلية السمع، وذلك لعدم وجود أذن خارجية لها، وإنما تتمتع الثعابين بأذن وسطى ذات عظمة واحدة. ولذلك كان العلماء يعتقدون أنها لا تشعر بالموجات الصوتية الهوائية، بيد أن الباحثين في جامعة "برستون" اكتشفوا أن الثعابين تمتلك حاسة سمع قوية للغاية، وذلك من خلال أذنها الداخلية. وبالبحث وجدوا أن الثعابين تستطيع الإحساس بضغط الصوت من خلال تردد الموجات الصوتية وبفحص وقياس التردد العصبي في أدمغتها، كما وجدوا أنها تملك القدرة على سماع الترددات العالية من الأصوات؛ وهذا يعني أن سمعها

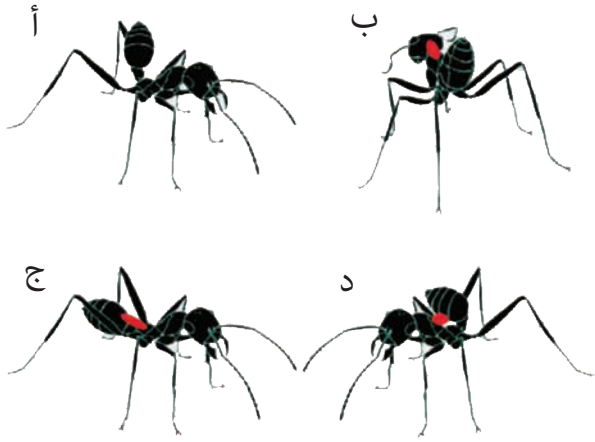

الشكل ٢: المناطق التي تجمَّعتْ فيها شعيرات اللمس بكثافة. (باللون الأحمر).

يفوق سمع البشر بـ ١٠ آلاف ضعف. ولكن كيف تصل الموجات الصوتية لأذنها الداخلية؟

قام الباحثون بتعليق الثعبان في الهواء ليتأكدوا من سماعه الموجات عن الطريق الهواء فقط، وكانت النتيجة مذهلة؛ حيث اكتشفوا أن هذا الثعبان يستطيع سماع الموجات الصوتية الهوائية، ولكن استقباله لهذه الموجات يختلف عن استقبالنا لها نحن البشر؛ فجسم الثعبان كله عبارة عن مجسات تتلقى الترددات الصوتية وترسلها للمخ من خلال جهازها العصبي في صورة معلومات.

لا شك أن هذه الأبحاث والدراسات العلمية من الباحثين، ستظل تكشف لنا أسرار هذا الكون، وعجائب المخلوقات التي تعيش على تربته، وستبقى تزودنا معرفة تحملنا إلى فضاء يزدان بالحقيقة والعرفان. ■

(*) باحث وأكاديمي تركي. الترجمة عن التركية: صالح القاضي.

بلال حسن التل*

مفتاح الإصلاح

إن التعليم هو أساس الثقافة والمكوِّن الرئيس للفكر، وعلى ضوء نوع التعليم يتحدد نوع الثقافة والفكر ومن ثم السلوك بل وهوية المجتمع. وهناك نوعان من التعليم؛ أحدهما صالح يقود إلى سعادة الدنيا والآخرة، وآخر يقود إلى الفساد والدمار المادي والمعنوي.

فتح الله كولن في ميدان التطبيق

يبرز الأستاذ فتح الله كولن كواحد من أبرز الداعين إلى إصلاح المجتمع من خلال التعليم، ولكنه يتميز بصدارة التطبيق العملي لهذه الدعوة والنجاح الباهر في نتاجها. فقد آمن الأستاذ فتح الله كولن مبكرًا بأن أعداء الأمة الحقيقيين ثلاث آفات؛ هي الجهل، والفقر، والفُرقة. فنذر حياته لمحاربة هذا التالوث الذي يفتك بالأمة، جاعلاً من محاربة الجهل أولويته الأولى باعتباره من أهم العقبات أمام بناء الإنسان الصالح ومن ثم المجتمع الصالح النظيف المنتج، فوضع نصب عينيه هدفًا لا يحيد عنه هو بناء جيل جديد، مستلهمًا بذلك

السيرة النبوية ودَوْر دار الأرقم بن أبي الأرقم التي علَّمت وربَّت ذلك الجيل القرآني الفريد.

سعى الأستاذ فتح الله كولن إلى بناء منظومة تعليمية تربوية متكاملة، تبدأ من رياض الأطفال وصولاً إلى الجامعة. وبفضل إصراره حققت حركة الخدمة نجاحات كبيرة في بناء هذه المنظومة؛ إذ صار الآن لدى المشروع الآلاف من المدارس في مختلف المراحل منتشرة في تركيا[1]، وعلى امتداد جغرافيا العالم تأخذ على عاتقها مسؤولية تعليم أبناء المجتمعات الموجودين فيها.

فلسفة التعليم في مشروع الخدمة

تُترجم المؤسسات التعليمية لمشروع الخدمة فلسفةَ التعليم التي وضعها الأستاذ فتح الله كولن. فالمتمعن في هذه الفلسفة يلمس أنها تجسّد شخصية الأستاذ وروحه المستندة إلى فهمه للإسلام؛ وأولها الانفتاح على ثقافات العالم وعلومه وأجناسه ودياناته. لذلك لا غرابة في أن تجد في مدارس الخدمة وجامعاتها أبناء كل الثقافات والأجناس والأديان، وهذا تجسيد لمفهوم عالمية الإسلام، باعتبار أن رسول الله ﷺ بُعث لكل الناس، مثلما أنه تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.

لقد بُعث رسول الله ﷺ لكل الناس، ولذلك فالإسلام دين جاء لخيرَي الدنيا والآخرة؛ من هنا تجمع فلسفة التعليم التي وضعها الأستاذ كولن لمؤسسات الحركة التعليمية بين علوم الدين وعلوم الدنيا، كما تمزج بين العلم والإيمان المبني على الأخلاق، من خلال المعلم القدوة في السلوك والالتزام الذي يهدف إلى بناء الإنسان على قواعد السلوك الإنساني القويم، ويبني لديه منظومة قيمية متكاملة، من خلال التفاني والإخلاص والشفقة والمتابعة والدقة والأناقة والنظافة التي هي عنوان المسلم بعيدًا عن مفهوم المعلم الموظف.

وهذه الفلسفة التعليمية التربوية مبنية على التعليم بالحب من خلال نيل حب وثقة الطالب وأهله، لبناء عملية تربوية تعليمية متكاملة تشارك فيها الأسرة والمدرسة؛ لإنقاذ الطالب من مخاطر الانفصام بين المدرسة والأسرة التي تعاني منها جلُّ المدارس في هذا العصر. وهذا النوع من التعليم يخرج إنسانًا محبًّا لعائلته ومدرسته ووطنه وأمته، يتمتع بحسّ وطني وتاريخي

نذر فتح الله كولن حياته لمحاربة الجهل والفقر والفُرقة الذي يفتك بالأمة، جاعلاً من محاربة الجهل أولويته الأولى، باعتباره من أهم العقبات أمام بناء الإنسان الصالح ومن ثم المجتمع الصالح النظيف المنتج.

ويعمل لخدمة مجتمعه. وتبرز أهمية ذلك أنه يتم في زمن مادي تُخرِّج فيه جلُّ المؤسسات التعليمية إنسانًا يتقن فَنَّ الأخذ ولا علاقة له بروح البذل والعطاء.

كذلك فإن المتأمل في فلسفة التعليم -كما تطبقها مدارس الخدمة- يلمس بوضوح مفهوم التعليم المستمر؛ أولاً من خلال الكم الهائل من النشاطات -خارج إطار المنهج الدراسي- التي تطبقها هذه المدارس بهدف بناء شخصية متكاملة متوازنة للطالب بعيدًا عن التلقين والحشو.. وتساهم في هذا البناء نوادي الأنشطة التي تُقام للطلاب، وكذلك المعسكرات الصيفية، بالإضافة إلى مساهمتهم في أنشطة أخرى. فالفلسفة التعليمية للخدمة كما وضعها الأستاذ، تهدف إلى تنمية الإبداع في مختلف المجالات بهدف بناء شخصية متكاملة لدى طالبها.

ويبرز مفهوم التعليم المستمر في فلسفة التربية والتعليم التي وضعها الأستاذ لمؤسسات التعليم في الخدمة، في أنَّ علاقة الطالب لا تنقطع مع مدرسته وجامعته مدى الحياة عبر العديد من القنوات؛ وهي فلسفة مستمدة من مفهوم دار الأرقم التي بنت الإنسان على المثال الذي يريده خالقه، وكما جاء بها الإسلام، والتي تحييها الآن فلسفة التربية والتعليم التي وضعها الأستاذ فتح الله كولن، وآتت أكلها في إصلاح الكثير من المجتمعات، وقدمت برهانًا عمليًّا على أن التعليم هو أساس الإصلاح، فعندما تُربّي إنسانًا صالحًا، فإنك تُربّي سياسيًّا صالحًا، واقتصاديًّا صالحًا، ومثقفًا صالحًا، ومن ثم مجتمعًا صالحًا.

محضن غير تقليدي

لم تقتصر جهود الأستاذ فتح الله كولن لإصلاح المجتمع من خلال التعليم عند حدود المؤسسات التقليدية للتعليم، فقد انطلقت مسيرته في مجتمع شديد المحافظة، حيث كانت الأسر التركية المحافظة

hiragate.com

تمتنع عن إرسال بناتها إلى المدارس خوفًا عليهن من الانحلال والإلحاد. مثلما لم تكن ترسل أبناءها الذكور إلى الجامعات لنفس السبب، مما يعني تفشي الجهل والتخلف وهما الأرضية الخصبة للفساد، الذي تصدى له الأستاذ فتح الله بإقامة المؤسسات التعليمية التي يطمئن إليها الناس، فاستلهم من سيرة رسول الله ﷺ تجربة دار الأرقم بن أبي الأرقم، فبدأ بتأسيس بيت للطلبة، حيث كان الطالب فيه يخضع لبرنامج محدد في التعلّم والتربية والسلوك.

وقد أعاد هذا البرنامج صياغة شخصية الطلاب الذين التحقوا به، مما يؤكد أن التعليم المشبع بالثقافة والفكر، هو أساس إصلاح الإنسان ومن ثم مجتمعه، حيث لمست أسر هؤلاء الطلاب حجم التغيير في سلوك أبنائها وانضباطهم، وإيجابيتهم نحو مجتمعهم، واحترامهم لمن هو أكبر منهم، وتفوقهم الدراسي ونشاطهم الاجتماعي، مما ساعد على انتشار فكرة بيوت الطلبة التي أسستها الخدمة في كل أنحاء تركيا.

وقد أسهمت هذه البيوت في تحقيق الهدف الذي سعى إليه مؤسسها، وهو بناء جيل جديد من الشباب المؤمن بدينه وأمته. كما أسهمت هذه البيوت في إنقاذ الجامعات التركية من الفكرَين الماركسي والقومي المتعصبين، وهي نتيجة تؤكد ما ذهبنا إليه عن دور التعليم المشبع بالثقافة والفكر. كل ذلك من خلال العمل الجاد الصامت الذي يقدم نموذجًا عمليًّا عن دور التعليم في إحداث الإصلاح الحقيقي للمجتمع ولواقع الناس، من خلال تغيير نفوسهم بعيدًا عن الاستفزاز وعن الخطابة والموعظة الخشنة.

الإعلام والتعليم

أدرك الأستاذ مبكرًا، وبحكم تجربته التي مكنته من معرفة عوامل التأثير في المجتمع وتفهمه لقضايا مجتمعه ومشكلاته، أن الأسرة والمدرسة لم تعودا وحدهما عنصري التربية والتعليم الرئيسيين. فقد صار الإعلام هو الآخر، شريكًا أساسًا في تعليم الإنسان وفي صياغة مفاهيمه وقناعاته وسلوكه، مثلما صار وسيلة أساسية من وسائل نشر الفكر والدعوة. ولأن الأستاذ فتح الله كولن داعية حريص على نشر دعوته مثلما هو ابن عصره، كان لا بد له من أن يوجه تلاميذه إلى امتلاك أدوات العصر، من هنا كان التوجه بأن يكون للخدمة وسائلها الإعلامية التي تسهم في تعليم الناس عبر تزويدهم بحقائق واقعهم، فترشدهم إلى السلوك القويم نحوها.

صحيح أن إعلام التجربة بدأ بدايات متواضعة تمثلت في مجلة "سيزينتي" (الرشحة)، لكنها بداية كانت تملك الإيمان والإصرار والوضوح، لذلك نجحت الحركة في بناء منظومة إعلامية متكاملة، من بينها مجموعة "زمان" أكبر الصحف التركية وأكثرها انتشارًا، حيث كانت توزع يوميًّا حوالي مليون نسخة، و"زمان" لم تكن صحيفة تقليدية كالصحف التي نعرفها، لكنها كانت صحيفة ذات رسالة، لذلك تختلف حتى في طريقة توزيعها، حيث يتم تسويقها على قاعدة الاشتراك، بهدف بناء علاقة حميمة مع الأسرة، تحقيقًا لهدفها الرئيس وهو تقديم حلول ناجعة للمشاكل التي يواجهها المجتمع. كما تقوم بإصدار ملاحق دراسية للطلبة تعزيزًا لدور الخدمة في التعليم؛ ويأتي ذلك كله انسجامًا مع فلسفة نموذج الخدمة في الإصلاح من خلال العمل، وأوله العلم النافع وفق رؤية الإسلام التي استقى منها الأستاذ فتح الله كولن.

لا يتوقف التعليم عبر إعلام تجربة الخدمة عند مجموعة "زمان"، فهناك أيضًا مجموعة "كاناك" للنشر التي هي بدورها منظومة فكرية متكاملة، تؤدي دورها في تعليم المجتمع وتنويره؛ بدأت بمجلة "سيزينتي" التي صدرت بهدف تربية جيل على أساس علمي إيماني، باعتبار أن كل ما في الكون آية من آيات الله في العلوم، وقد صار لهذه المجلة أكثر من ثلاثين أختًا، هي مجلات تصدر بعدد من اللغات من بينها مجلات متخصصة بالطفل والمرأة.. إلخ. وتقف في طليعة هذه المجلات مجلة "حراء" التي تصدر باللغة العربية، والتي لم تعد مجرد مجلة، لكنها تحولت إلى جسر للتواصل بين أبناء الحضارة الإسلامية وثقافتها وأهل الفكر فيها.

بالإضافة إلى مجموعة المجلات التي تصدرها مجموعة "كاناك". فإنها تمتلك دورًا للنشر، تصدر كتبًا بلغات مختلفة منها العربية، كما تمتلك المجموعة موقعًا إلكترونيًّا بلغات مختلفة، وتصدر كتبًا مدرسية متطورة، وكل هذه المطبوعات من مجلات وكتب لا تأتي عفو

hiragate.com

الخاطر ولا تصدر منبتَّة عن بعضها، لكنها تشكل عِقْدًا متكاملاً تقف وراءَها عقول مستنيرة يواصل أصحابها من محبّي الأستاذ كلالة الليل بكلالة النهار، ليقدموا للأمة بل وللعالم خلاصة ما يصل إليه العقل المؤمن المستنير، وأولئك هم مجموعة "الأكاديمية" ذات الدور المتميز في التعليم الذي يصلح العقول لتصلح البيئة التي يصل إليها نتاج هذه العقول كما علمهم الأستاذ فتح الله.

إضافة للإعلام المكتوب والإلكتروني، فقد نجحت حركة الخدمة في تأسيس منظومة إعلام مرئي ومسموع، تجسده مجموعة "سمان يولو" (Samanyolu) التي تمتلك العديد من القنوات التلفزيونية والإذاعات المسموعة. وهذه المجموعة بدورها تتحدث بلغات مختلفة، ولديها قنوات متخصصة، مثلما أنها نجحت في اقتحام مجال الدراما، فأنتجت العديد من المسلسلات الهادفة. غير أن التحدي الكبير الذي نجحت فيه هذه المجموعة التي انطلقت وهي تفتقر إلى الكوادر البشرية المدربة، أنها وبعد خمس سنوات من انطلاقتها صارت ترفد السوق التركي بالكوادر الفنية المدربة. وكل هذه الإنجازات تعطينا الدليل تلو الآخر على دور التعليم بوسائله المختلفة في إحداث الإصلاح المطلوب، خاصة في نفس الإنسان؛ وقد تجلى هذا الأثر أثناء الأزمة الاقتصادية التي مرت بها تركيا عام ١٩٩٥، حيث برزت روح التضحية لدى العاملين في المجموعة، حفاظًا على المشروع الرسالي الذي آمنوا به. أما في أزمة عام ٢٠٠٠ الاقتصادية، والتي هددت المشروع بالإغلاق، فقد تدافع الناس للتبرع بما يملكون للمحافظة على مشروعهم الرسالي، حتى لقد تبرعت النساء بمصاغهن للحفاظ على استمرارية المشروع، وهذا السلوك يعكس أثر المصلح وأسلوبه في التعليم على المحيط.

بالإضافة إلى المؤسسات الإعلامية المهنية المرتبطة بحركة الخدمة، فقد أقامت الحركة وَقفًا للصحفيين والكتاب يعتبر واحدًا من أنشط الأطر الصحفية والإعلامية والفكرية في تركيا. مثلما يتعاون الوَقْف مع النقابات والجمعيات الصحفية والأدبية في العالم، من خلال المؤتمرات والندوات في مجال حوار الثقافات والأديان وغيرها من المناشط الثقافية والفكرية. كل ذلك لأن الأستاذ فتح الله يؤمن بأن الحوار هو من أهم وسائل التعليم وإيصال الحقيقة للناس والتأثير في قناعاتهم ومواقفهم وسلوكهم.

وسائل الدعم المادي

قد يتساءل البعض، كيف استطاعت حركة الخدمة أن تُقيم كل هذه المؤسسات؟ والجواب عن هذا السؤال يقودك إلى أثر من آثار التعليم النافع ودوره في إصلاح نفوس الناس، ومن ثم إصلاح واقعهم. ذلك أن الأستاذ فتح الله كولن -وهو الذي قرأ سيرة رسول الله ﷺ ووعاها وعيًا كاملاً- هو نفسه ابن عصره الذي صار فيه المال عصب الحياة كما هو في سائر العصور، لكن تَميُّز الناس يكمن في كيفية استخدام المال وتوظيفه.

وقد استوعب الأستاذ تجربة عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في تسخير أموالهما لخدمة دعوة الله ﷻ، فجعلهما وغيرهما من الصحابة نموذجًا يَقتدي به محبُّوه من رجال الأعمال الذين علّمهم كيف يسخّرون أموالهم ويطهرونها عبر الخدمة، وهكذا كان؛ فمنذ البداية الأولى سعى رجال الأعمال المؤمنون الذين اقتنعوا بأفكار الأستاذ ومشروعه، إلى تسخير إمكانياتهم لخدمة الدعوة، ابتداء من أول بيت للطلبة أقامه الأستاذ فتح الله كولن، وصولاً إلى كل المؤسسات التي أقامها أبناء الخدمة، وجلّ ذلك يجري من خلال اتحاد رجال الأعمال "توسكون" الذي يضم آلافًا من رجال الأعمال المؤمنين بأفكار الخدمة التي يبذلون في سبيلها مالهم ووقتهم وجهدهم، علمًا بأن نسبة عالية من هؤلاء شباب، ساروا على هذا الدرب ليقدموا الدليل العملي على دور التعليم في الإصلاح. ■

(*) رئيس تحرير جريدة "اللواء" الأردنية / الأردن.

الهوامش

(١) أغلق الحزب الحاكم (العدالة والتنمية) في تركيا كافة المؤسسات التربوية والتعليمية المذكورة في المقال من مدارس وجامعات ومعاهد، ومؤسسات ثقافية وتجارية وإعلامية وإغاثية للخدمة بعد الانقلاب المزعوم في ١٥ يوليو/تموز ٢٠١٦م، دون أيّ مبرر قانوني، وشردت مئات الآلاف من العاملين في هذه المؤسسات. (المحرر)

hiragate.com

صلاح عبد الستار الشهاوي*

ثلاثة أعوام في حضرة القدس

إن القدس الشريف من أهم المراكز الثقافية التي قصدها الرحالة العرب والمسلمون، يزورونها في أكثر الأحيان قبل الإياب إلى أوطانهم بعد أداء فريضة الحج؛ معتبرين هذه الزيارة من متممات الفضائل الدينية.

يتحدث "المقدسي البشاري" (٣٣٦-٣٨٠هـ) في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" عن مكانة القدس العلمية وقتذاك فيقول: "وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب". ومن الدلائل على مكانة القدس العلمية، أن الكتب التي أُلفت في فضائلها كتب أغلبها في القدس".

أبو بكر بن العربي الإشبيلي

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي، المشهور بالقاضي أبو بكر المعافري الإشبيلي المالكي؛ عالم أهل الأندلس ومسندهم، وُلد بإشبيلية سنة ٤٨٦هـ، وفيها نشأ وقرأ القراءات وسمع من أبي عبد الله بن منظور، وأبي محمد بن خزرج. ثم رحل عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م بصحبة أبيه إلى الشرق لأداء فريضة الحج ولم يتجاوز بعدُ السابعة عشر من

العمر، كما ذهب إلى بغداد مع أبيه للدعاية السياسية لابن تاشفين ولتحصيل العلم. فزار مصر ومكة ودمشق وبغداد، واستقر بفلسطين لأكثر من ثلاث سنوات، ثم رجع إلى وطنه بعد غيبة دامت عشرة أعوام.

سمع بالحرم الشريف من الحسين بن علي الفقيه الطبري، وبالشام من الفقيه نصر المقدسي وأبي الفضل بن الفرات، وسمع في بغداد من أبي طلحة النعالي، وجعفر بن السرَّاج، وتفقه على أبي حامد الغزالي، وفي بيت المقدس من مكيّ بن عبد السلام الرُّمَيلي، وأبي بكر الفهري، وأبي بكر الطرطوشي، وبمصر من القاضي أبي الحسن الخِلَعي، ومحمد بن عبد الله بن داود الفارسي. ثم رجع بعد وفاة أبيه بالإسكندرية إلى الأندلس سنة ٤٩١هـ وولي القضاء بها، ثم حُمل مع من حُمل إلى مدينة مراكش، ثم انصرف منها إلى فاس فأدركته المنية فيها في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ.

إنجازاته العلمية

كان أبو بكر بن العربي الإشبيلي، من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، مقدّمًا في المعارف كلها، متكلمًا في أنواعها، نافذًا في جميعها، حريصًا على أدائها ونشرها.. له شهرة في علمه، أخذ جملة من الفنون حتى أتقن الفقه والأصول وقيّد الحديث، واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحّر في التفسير. صنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. ولي قضاء إشبيلية، حيث قال عنه ابن بشكوال: "هو الإمام الحافظ ختام علماء الأندلس".

من أشهر مؤلفات ابن العربي "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" الذي وصف فيه رحلته إلى القدس، و"أحكام القرآن"، و"العواصم من القواصم"، و"قانون التأويل"، و"كوكب الحديث والمسلسلات"، و"نزهة الناظر"، وغيرها من الكتب.

وابن العربي هو الذي نقل من الشرق إلى الغرب الإسلامي مجموعة من أمهات كتب الأشاعرة، وذلك عندما التقى في العراق بأبي حامد الغزالي، وروى عنه مجموعة من كتبه من أهمها "إحياء علوم الدين".

يقول ابن خلدون: "إن ابن العربي من أول الجالبين لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي عند عودته من الرحلة الشرقية عام ٤٩٥هـ".

الرحلة ومقصدها الظاهر والباطن

رحل ابن العربي في شبابه من الأندلس إلى المشرق لقضاء مناسك الحج، ومن ثم عرج على العراق طلبًا للتوسع في العلم والاحتكاك بعلماء العصر هناك والأخذ عنهم، هذا ما كان ظاهرًا من أمر رحلته مع أبيه إلى الشرق.

أما مقصد الرحلة الباطن فيذكره ابن خلدون في "المقدمة"، حيث يذْكُر غرضًا آخر من أغراض الرحلة وهو الغرض السياسي، حيث خرج عبد الله بن العربي وابنه، مُوفدَين من يوسف بن تاشفين إلى عاصمة الخلافة العباسية لملاقاة الخليفة، والتمهيد لزيارة رسمية لانتزاع اعتراف رسمي من الخلافة بمُلك ابن تاشفين، ومن ثم كان والد ابن العربي أول سفير سياسي لدولة المغرب في عصر ابن تاشفين.

hiragate.com

يقول ابن خلدون: "لمَّا كبرت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمالته، اجتمع إليه أشياع قبيلته وأعيان دولته، وقالوا له: "أنت خليفة الله في أرضه، وحقُّك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين"، فقال لهم: "حاشا لله أن نتسمَّى بهذا الاسم، إنما يتسمَّى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم"، فقالوا له: "لا بد من اسم تمتاز به"، فأجاب بأمير المسلمين وناصر الدين، وخطب له بذلك في المنابر، وخوطب به من العُدْوَتَيْن؛ أي المغرب والأندلس".

وصف القدس في عصره

في رحلته من الأندلس إلى المشرق نزل ابن العربي وأبوه بفلسطين، وأقام في القدس الشريفة ثلاث سنوات ليأخذ العلم عن علمائها. وفي رحلته التي دونها ابن العربي، يصف دخوله بيت المقدس وما شاهده فيها: "فدخلنا الأرض المقدسة وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام. وحين صلَّيت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي له، عمدتُ إلى المدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفيتُ بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى، والمقدسي، وهم يتناظرون على عاداتهم".

ويذكر ابن العربي أن والده أراد في موسم الحج -وهما بفلسطين- أن يتوجه به للحج مرة أخرى قبل العودة للأندلس، ولكن الابن قال بعد أن خلب بيت المقدس لبَّه: "فقلت لأبي رحمة الله عليه: إن كان لك نية في الحج مرة أخرى فامض لعزمك، فإني لست بِرام هذه البلدة حتى أعلم علمَ من فيها، وأجعلُ ذلك دستورًا للعلم وسُلَّمًا إلى مَراقيها".

ثم وصف لنا ابن العربي لقاءه بشيخه أبي بكر الطرطوشي فقال: "ومشينا إلى شيخنا أبي بكر الفهري رحمة الله عليه، وكان ملتزمًا من المسجد الأقصى -طهره الله- بموضع يقال له "الغوير" بين باب الأسباط ومحراب زكريا عليه السلام، فلم نُلفِه به واقتفينا أثره إلى

موضع يقال له "السكينة" فألفيناه بها، فشاهدت هَديه وسمعت كلامه فامتلأتْ عيني وأذني منه، وانفتح لي منه إلى العلم كل باب، ونفعني الله به بالعلم والعمل، ويسَّر لي على يديه أعظم أمل، فاتخذت بيت المقدس مَباءة والتزمت فيه القراءة، لا أُقبل على دنيا ولا أكلِّم إنسيًّا، نواصل الليل بالنهار".

ثم يذكر ابن العربي أغراض العلوم التي حصلها ببيت المقدس والكتب التي قرأها قائلاً: "ولم نزل على تلك السجية حتى اطلعتُ -بفضل الله- على أغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، التي هي عمدة الدين والطريق المهيع إلى التدّرب في معرفة أحكام المكلفين، الحاوية للمسلك والدليل، الجامعة للتفريع والتعليل".

ويذكر ابن العربي أسماء العلماء الذين وردوا على القدس من مختلف الأمصار في عصره فيقول: "وفي أثناء ذلك، ورد علينا برسم زيارة الخليل صلوات الله عليه، ولنية الصلاة في المسجد الأقصى، جماعة من علماء خرسان كالزوزني، والصاغاني، والزنجاني، والقاضي الريحاني، ومن الطلبة جماعة كالبسكري، وساتكين التركي".

ويذكر ما جرى بينه وبين هؤلاء العلماء من مناظرات

في العلم، وما جرى بينهم وبين اليهود والنصارى من مناظرات في العلم فيقول: "أَدخُل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف لا تلهينا تجارة". وعن إحدى المناظرات التي دارت بين أتباع الطوائف المختلفة يقول: "ونظرتُ إلى كل طائفة تناظر، وناظرتها بحضرة شيخنا أبي بكر الفهري -رحمه الله- وغيره من مشيخة أهل السنة، وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة (وكلها فرق إسلامية) واليهود، وكان لليهود بها حبرٌ منهم يقال له "التستري"، لقنا فيهم ذكيًا بطريقتهم، وناظرنا النصارى بها، وقد حضرنا يومًا مجلسًا عظيمًا فيه الطوائف، وتكلم التستري الحبر اليهودي على دينه، فقال: اتفقنا على أن موسى نبي مؤيد بالمعجزات، معلّم بالكلمات، فمن ادَّعى أنه غير نبي فعليه الدليل، وأراد من طريق الجدال أن يرد الدليل في وجهتنا حتى يطرد له المرام، فقال له الفهري: إن أردت بموسى الذي أيد بالمعجزات وعلم الكلمات وبَشر بأحمد، فقد اتفقنا عليه وآمنا به وصدقناه، وإن أردت به موسى آخر فلا نعلم ما هو؟ فاستحسن ذلك الحاضرون، وأطنبوا في الثناء عليه فبهت الخصم وانقضى الحكم".

وختامًا

وصف ابن العربي النشاط العلمي الذي ساد في مدينة القدس في ذلك العصر بالجودة، هذا النشاط لم يقتصر على تدريس الطلاب، إنما شمل أيضًا المحاورات والمناظرات العلمية التي كانت تعقد بين جميع فئات المجتمع ممن تهتم بالعلم، منهم العلماء والطلاب وأتباع المذاهب الإسلامية المختلفة والطوائف الدينية التي كانت تسكن مدينة القدس.

ومما يؤكد علو شأن العلم والمستوى العلمي المرتفع الذي تمتعت به القدس في ذلك العصر، أن ابن العربي الذي جاب بلاد العرب جمعيها من محيطها إلى خليجها، بُهر بذلك المستوى الرفيع، لذلك قرر البقاء في القدس لينهل من ينابيعها العلمية لمدة ثلاثة أعوام، رغم أن هدفه عندما زارها كان مجرد الزيارة والتبرك بمقدساتها، فهو لم يغادر المدينة إلا بعد أن نال منها علمًا غزيرًا، وأتقن علومًا دينية كثيرة. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

د. حسن الأمراني*

نبوءة العرَّاف

أنبأني العَرَّافْ:
ستركب المجْدافْ
وتصحب التطوافْ
بحثًا عن الناسكة التي تقيم في جزيرة
وسط بحار ما لها ضفافْ
جوهرة تسترها الأصدافْ
عند حدود "قاف"

نَشرتُ باسم الواحد القهَّارْ
أشرعتي، أُغالب التيَّارْ
نزلت في وهرانْ
مررت بالمرسى الكبير
مُثقلاً روحيَ بالأشجان

وقفت في الصباحْ
في "ساحة السلاحْ"
والأسد الرابض يحكي قصَّة القرصانْ
يوم أتى محمَّلاً بالحقد والنيرانْ
مضت قرونٌ خمسة

وما يزال نسله يزلزل الميدانْ
وجهت باسم الله مركبي
إلى جهات ما لها شطآن
نزلت في عمّان
نشرت في معان
ألويتي.. ثم ركزت الرمح في عُمانْ
في كل أرض نخلةٌ
وعند كل ربوة أقواسْ
شديدة المراسْ
نزلت في أغرا، وفي شيراز،
في جفون "كلستان"
أتعبني التطواف
يممت نحو فاس

ما أكذب العراف
لم أجد الناسكة الحسناء عند "قاف"
لكنني وجدتها مضيئة تحت ظلال "ق".

(*) شاعر وأديب مغربي.

أبو الصهباء الأزهري*

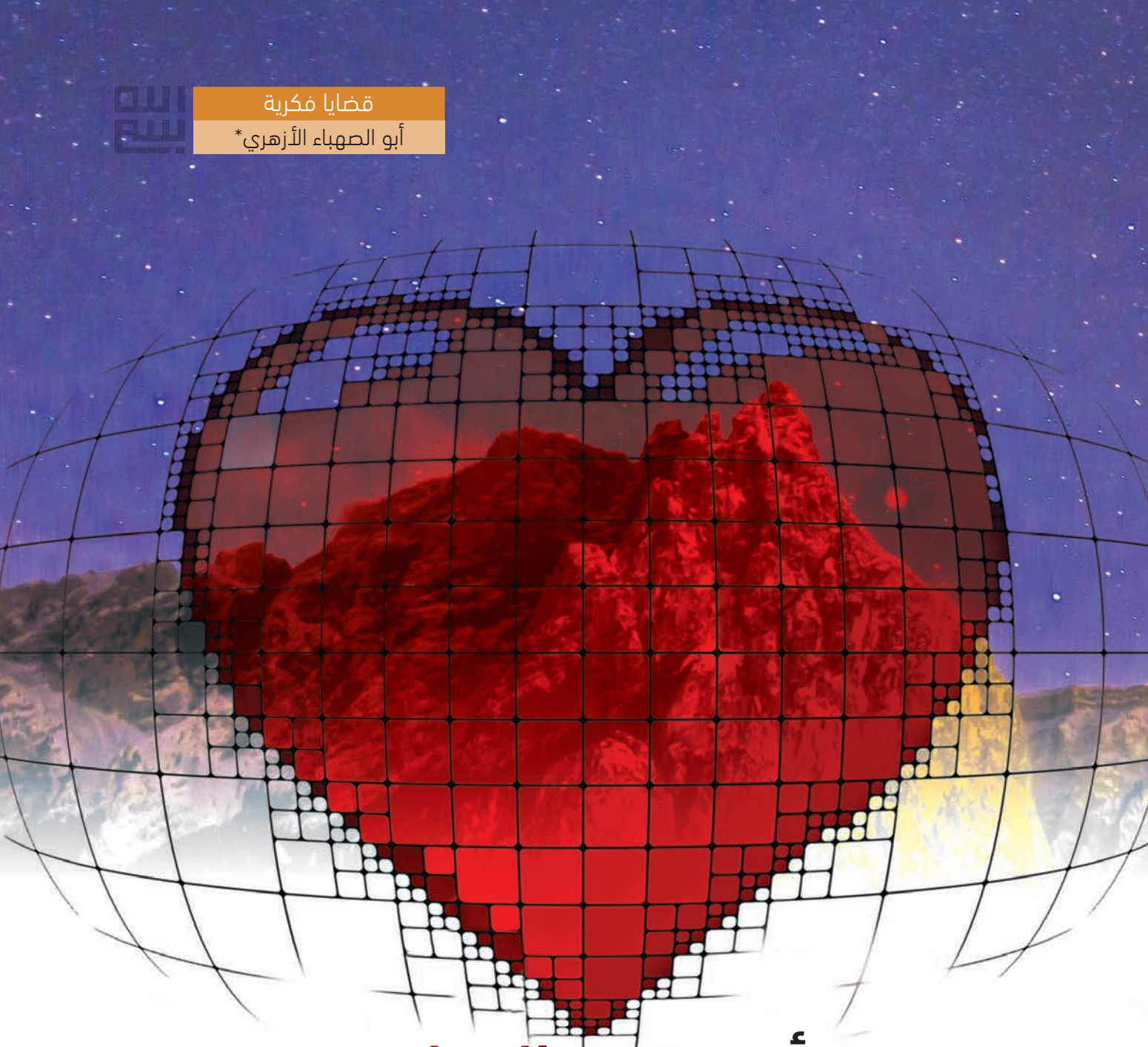

أقسى من الجماد

واجب على كل حاملٍ للرسالة الربانية أن يبلغها إلى البشرية كافة، ويحيي بها القلوبَ الغافلة عن فطرتها النقية التي وارتها الغفلة في تربة اليأس. وإن في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، إشارة إلى إعطاء تصور آخر غير ما كنَّا نتصور نحن عن الجماد، فكانت هذه هي البداية التي نتتبع من بعدها وفي ضوء ما قرره التصور القرآني للجماد. ولكي لا يتشعب الحديث معنا عن أنواع الجمادات وأوصافها، فلنأخذ مثالاً تصدق عليه أوصاف

الجماد، وفي نفس الوقت يعطينا طرفًا من الصورة القرآنية عن الجماد، وهذا المثال هو الجبل وقد ذُكر في غير موضع من كتاب الله تعالى، وبالتتبع للآيات التي ذكر فيها، نجدها تشير إلى ثلاثة محاور، هي قوته، وعبادته، والمكافأة أو العطايا الإلهية.

١- قوته

مما يرشدنا إلى قوة الجبل أنه كان -ولا يزال- مظهرًا للقوة يتترس به الإنسان ويلجأ إليه؛ فإن نوحًا عليه السلام عندما خالفه ابنه في أمر التوحيد، تحرك وجدان نوح عليه السلام نحو ابنه، وراح يدله على سبيل النجاة: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾(هود:٤٢)، ولكن الابن تأثر ببيئته وما فيها من جبال، فاغتر بها وظن أن بها من القوة ما يكفي لنجاته فقال لأبيه بقلب يعلوه الران: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾(هود:٤٣)، لقد تعلق بالقوة المادية في قساوة قلب لم يُعهد مثلها في التاريخ، فتبرأ منه والده ولم يكرر النداء، فكانت العاقبة أن باء بالخسران.

وإذا بالتاريخ يعيد نفس المشهد والحال مع أصحاب الحِجْر؛ فقد بلغ الغرور بأصحاب الحجر مبلغه فكذبوا نبيَّهم لما جاءهم بالتوحيد، فكان منهم الإعراض والتكبر لأنهم "كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين"، فاغتروا بقوة الجبال، وظنوا أنهم بداخلها في بيوتهم آمنين، فكان الجزاء الإلهي: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۞ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الحجر:٨٣-٨٤).

فهذا الجبل على الرغم من قوته الظاهرة، لا يغتر بقوته ولا يستنكف عن العبادة والتسبيح لخالقه مع الأخذ في الاعتبار أنه غير مكلف.

٢- عبادته

إن الجبل لم يغتر بقوته التي أفاضها عليه الله تعالى، ولكنه أبى -على الرغم من كونه غير مكلف- إلا اللحاق بفريق العُبَّاد لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ﴾(الحج:١٨)؛ فالجبل أيضًا من فريق الساجدين، بل إنه لم يلتحق بهذا الفريق رياء أو مباهاة أو مفاخرة، ولا يسجد سجودًا خاليًا من الخشوع لله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١).

فالحجارة والجماد يسبح الله عز وجل لدرجةٍ عُليا تصل إلى الخشوع والخشية، فالحجارة تحركت من موضعها خشية لله تعالى، والقلوب ما زالت على قسوتها لا تتحرك حتى عند الاعتداء على المقدسات وانتهاك الأعراض وقتل الأبرياء، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(البقرة:٧٤)، وبسبب هذه القسوة التي لا يحدها وصف، فإن الحق ﷻ قد أعد العذاب المهين لأصحاب القلوب القاسية، يقول عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الزمر:٢٢).

٣- المكافأة أو العطايا الإلهية

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾(القصص:٤٦)؛ والطور هو الجبل المعروف بسيناء، فنجد أن الله تعالى لما نادى على الكليم عليه السلام وكلَّمه وأوحى إليه بالرسالة، قد شرَّف المكانَ ووهبه الروحانية والقدسية، فكلمه عند جبل الطور، وهذا يدل على بركة المكان.

وأما كونه مقدسًا، فإن الله عز وجل جعل الطور وما حوله، واديًا مقدسًا وسجل هذا في كتابه الكريم بما لا يدع مجالاً للشك: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(طه:١٢)، فنال المكان البركة والقدسية بفضل الله تعالى منحة للجبل.

وأيضًا أقسم الله تعالى بالطور: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ﴾(التين:١-٢)، وكذلك فإن الله عز وجل علق الرؤية على الجبل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾(الأعراف:١٤٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾(البقرة:٧٤)، فكما أن قوته أهلكت أقوامًا لما اغتروا بها بعض الناس أن ذلك من أسباب دمار الحضارات، ولكن جعل الله عز وجل فيه ما يبعث الحياة في النفوس، ففجر منه المياة العذبة النقية لقوم موسى عليه السلام. فلا عجب إذا رأينا النباتات تزهر في الجبال وتشق الصخر، معلنة عن وجودها حيث لا

hiragate.com

يوجد سبب من أسباب الحياة كما هو في الظاهر، ولكن عناية الله بخلقه هي التي تكفلت بذلك.

ثم إن الله جعله علامة على إحياء الموتى كصورة مصغرة للبعث الأكبر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٠)؛ فكانت آية باعثة على تثبيت قلب الخليل إبراهيم عليه السلام على الحق في مواجهة التحديات التي تواجهه في تبليغ الرسالة.

وأيضًا فإن من المنح للجبل أن ربط به بعض العبادات؛ فجبل عرفات جعله الله ركن الحج الأعظم، فلا حج لم يقف عليه، والصفا والمروة جعلهما الله من الشعائر بما يضمن لهما الخلود في ذاكرة التاريخ الإسلامي.

هذا، وقد ورد حب النبي ﷺ للجبل؛ فقد كان ﷺ يحب أُحُدًا: "هذا جبل يحبنا ونحبه" (رواه البخاري).

ولأن الجبل -كما أسلفنا- من جملة العباد والمسبحين لله تعالى، وربط نفسه بهذا الفريق، نجد أن الله تعالى أعطاه تكريمًا من نوع آخر، فجعله في أوائل هذا الفريق من العباد لله تعالى؛ فعندما أراد الله أن يلقي على خلقه الأمانة، اختار فئات تليق بهذا التكريم الإلهي فكان الجبل من بينها: قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾(الأحزاب:٧٢).

والسمت الجامع بين هذه المخلوقات هي عبادة الله تعالى، فإن السماوات والأرض أخبر الله تعالى عنهما في كتابه الكريم، فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، والجبل كذلك من هذا الفريق، يعبد الله طوعًا، لحق بهم عند الاختيار لحمل الأمانة، مع الأخذ في الاعتبار أن ثلاثتهم ليس مكلفًا، فلما كان الأمر كذلك خُيِّروا، ولكنهم فطنوا إلى عظم الأمر، وتحملها الإنسان ولم ينتبه لعظم الأمانة، فكان كما ذكر تعالى: ﴿ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

من هذه الآية يتبين دون أدنى شك قوته ﷺ التي تربو على هذه المخلوقات، وذلك أنه تحمَّل القول الثقيل

واجب على كل حامل للرسالة الربانية أن يبلغها إلى البشرية كافة، ويحيي بها القلوب الغافلة عن فطرتها النقية، والتي وارتها الغفلة في تربة اليأس.

لهداية البشرية كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

ومن قوة النبي ﷺ -المادية والمعنوية- إلى الواقع المعاصر، فيجب علينا -للنهوض من غفلتنا وسباتنا العميق- أن نتعلق بأسباب القوة الحقيقية، والتي من أول مبادئها رقَّة القلب والخشية من الله تعالى، والإخلاص في عبادته ﷻ، وهذا وعد الله لن يتخلف قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(النور:٥٥).

فلا بد من العودة إلى الله تعالى، وإحياء موات القلوب بماء القرآن العذب الرقراق، والتدبر في آي الله تعالى المبثوثة في الأنفس والآفاق، بما يزيل القسوة وأسبابها عن القلوب.

ومن حلمه تعالى أنه ينادي على قلوب المؤمنين التي ربما غطاها الران فصارت قاسية لا تخشع ولا تتدبر آي الله تعالى، حتى أصبحت أقسى من الحجارة في باطن الجبال. ولعل هذا النداء الرباني يجد في القلوب قطرة أو رشفة من إيمان، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾(الحديد:١٦).

هناك من يستجيب لهذا النداء فيحيا ويسعد، وهناك من يتنكر ويستنكف عن الإجابة فيشقى، وهذا في نظر القرآن الكريم ليس له قلب أو حياة حتى وإن كان حيًّا ظاهريًّا. ولأن الله تعالى هو العدل الحق، فإنه يبعث إلينا برسالة تبث الثقة واليقين في وعده. ■

(*) باحث وكاتب مصري.

hiragate.com

د. عبد الدائم الكحيل*

إن أعظم معروف يمكن أن نمنحه لأجيالنا أن نبعث في قلوبهم شعور العيش من أجل الآخرين.

الموازين

هل للروائح لغة؟

بعد رحلة طويلة لسيدنا يوسف عليه السلام تنقّل فيها من حضن أبيه إلى ظلام الجبّ ثم إلى السجن وأخيرًا إلى عرش الملك، بقي أبوه يعقوب عليه السلام واثقًا بالله ولم يفقد الأمل من رحمته، وبقي يتذكر ابنه ويأمل عودته بعد أن مضى على غيابه سنوات طويلة. وعندما أرسل يوسف قميصه لأبيه وقبل أن يصل القميص أخبرهم يعقوب أنه يجد ريح يوسف، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾(يوسف:٩٤)، وبناء على هذه الآية الكريمة، كيف استطاع سيدنا يعقوب عليه السلام أن يجد ريح ابنه على مسافة طويلة قبل أن يصل القميص إليه؟

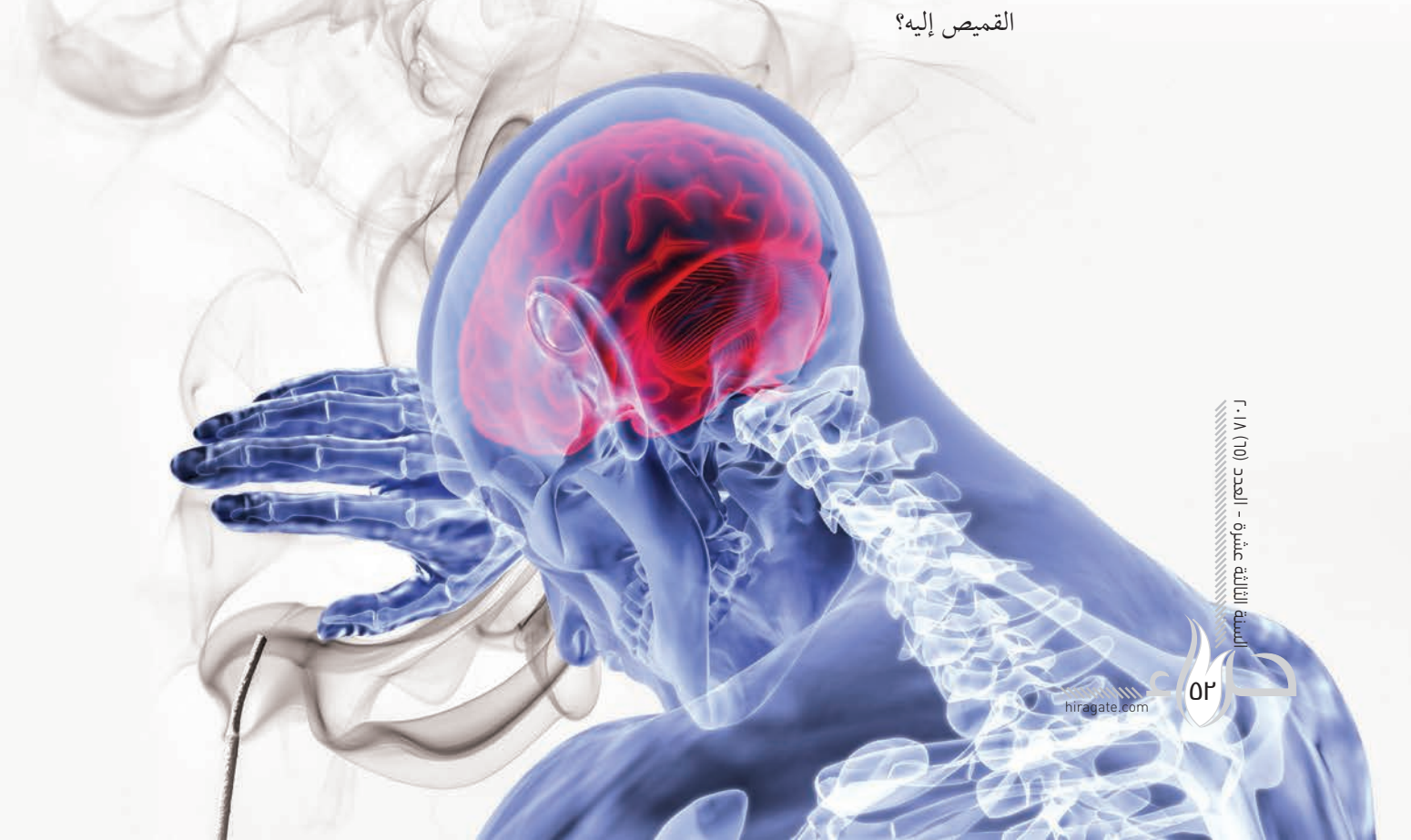

اكتشافات علمية معاصرة

من الأخبار العلمية التي تلفت الانتباه أن العلماء وجدوا آثارًا لعضو ضامر يسمى "Vomeronasal" في أنف الإنسان كان في يوم ما يلتقط الإشارات الكيميائية البعيدة الصادرة عن أشخاص آخرين. يقول العلماء: إن هذا العضو الحساس يقع في الدماغ خلف فتحتي الأنف، وإن هذا العضو الضامر، كان عبارة عن ثقبين صغيرين يلتقطان الإشارات الكيميائية التي يفرزها أشخاص آخرون، ويحتوي على مجموعة من الأعصاب تستطيع تحليل هذه الإشارات والتعرف على صاحبها. كما أن هذه الخلايا العصبية كانت فعالة منذ آلاف السنين، ولكنها فقدت حساسيتها مع الزمن ولم يعد لها مفعول يُذكر، ولكن -وكما نعلم- هنالك كثير من الحيوانات تتخاطب بلغة الإشارات الكيميائية كالنمل مثلاً. ويؤكد العلماء أن هذا العضو كان مستخدمًا بفعالية كبيرة لدى البشر في عصور سابقة.

أجل، لقد اكتشف العلماء وجود عضو ضامر خلف أنف الإنسان (القسم الأحمر)، وهذا العضو كان ذات يوم يتحسس المواد الكيميائية المنبعثة من أشخاص آخرين ومن مكان بعيد، ويستطيع الدماغ قراءة المواد الكيميائية كما يقرأ أحدنا الرسالة.

حتى إن العلماء اليوم يعتقدون بوجود إشارات كيميائية يتم تبادلها بين البشر، ويحاولون دراسة هذه الإشارات وتأثيراتها واستكشافها، وبالتالي يعتقدون بوجود مواد كيميائية تميز كل إنسان عن الآخر، بل وتميز الرجال عن النساء. كما يؤكد الباحثون أن الكثير من الثدييات -مثل الفئران- تتخاطب بالرموز الكيميائية.. ويقول العلماء إن الإنسان يستطيع أن يميز عشرة آلاف نوع مختلف من أنواع الرائحة.

اكتشفت الدكتورة "ليندا باك" (Linda Buck) أن أجهزة التحسس في أنف الإنسان تتلقى الروائح وتعاملها مثل الرسائل المؤلفة من أحرف ألفبائية، ثم تحولها إلى الدماغ ليتعرف عليها، وبالتالي هناك إمكانية للتعرف على آلاف المواد الكيميائية.

إن العلم اليوم يقرر حقيقة علمية، وهي ثبات رائحة الإنسان وتميزها عن غيره؛ فلكل منَّا رائحة تختلف عن

تستطيع الروائح تنشيط مناطق كثيرة في الدماغ، فتجعل الإنسان يتذكر أشياء ارتبطت برائحة المادة التي يشمها، ويستطيع تذكر أشياء مضى عليها عشرات السنين ويربطها بهذه الرائحة.

الآخر، حتى إنه ليمكننا القول بأن كل إنسان له بصمة كيميائية تتمثل في إفراز جسده لمواد محددة تختلف عن أي إنسان في العالم، وتبقى هذه الرائحة مرافقة له في عرقه -مثلاً- منذ ولادته وحتى الموت.

يقول ثلاثة علماء من جامعة هارفارد الأمريكية (Liman, Corey, Dulac)، بأن هنالك جزيئات تدعى TRP2 تتموضع على الخلايا العصبية، وعندما تأتي المواد الكيميائية التي يطلقها إنسان آخر، فإنها تندفع عبر الجزيئات TRP2 وتسبب تغيرًا في توتر الخلية (الطاقة الكهربائية المختزنة في الخلية)، وبالتالي ترسل الخلية إشارات كهربائية إلى الدماغ، يحللها الدماغ مثل رسالة بريد إلكتروني.

وهنالك مواد كيميائية يطلقها الإنسان وتؤثر على سلوك الآخرين، ويطلق اليوم العلماء مصطلح "ذاكرة الرائحة" للدلالة على وجود تقنيات في دماغ الإنسان تستطيع تذكر الروائح والتفاعل معها، بل وتستطيع هذه الروائح إحداث تغييرات فيزيولوجية في الإنسان.

وتؤكد الدكتورة "ليندا باك" من جامعة هارفارد، أن الروائح تستطيع التأثير في سلوك البشر، وتستطيع الروائح تنشيط مناطق كثيرة في الدماغ، فتجعل الإنسان يتذكر أشياء ارتبطت برائحة المادة التي يشمها، ويستطيع الإنسان تذكر أشياء مضى عليها عشرات السنين ويربطها بهذه الرائحة.

الرؤيا والشم

إن عملية شم الروائح وتحليلها عند الإنسان عملية معقدة جدًّا لا يزال العلم يكتشف بعض أسرارها، منها أن مركز الشم يرتبط بالعديد من أجزاء الدماغ مثل الرؤيا، أي إن هناك علاقة بين الرائحة التي يشمها الإنسان، وبين ذكرياته وما يراه وما يؤثر على مركز الرؤيا في الدماغ.

وبتعبير أوسع، يؤكد العلماء على وجود علاقة بين الروائح التي يشمها الإنسان وبين الكثير من مناطق الدماغ، مثل التذكر والرؤيا وحتى تغير السلوك الإنساني، أي إن الرائحة التي يشمها الإنسان، قد تؤثر في القسم الأمامي من الدماغ المسؤول عن السلوك والقيادة واتخاذ القرارات. ولذلك من الممكن علميًا أن تتعطل منطقة ما من مناطق الدماغ بسبب معين، ثم تأتي رائحةٌ تذكر ذلك الشخص بالسبب الذي أدى لحدوث هذا التعطل، وبالتالي يتم تنشيط هذا الجزء المعطل وإعادته لصورته الطبيعية.

وبما أن البشر كانوا يملكون قدرة كبيرة على تحليل الإشارات الكيميائية أو الروائح، فإن سيدنا يعقوب عليه السلام استطاع تذكر رائحة ابنه الذي مضى على غيابه عشرات السنين، بينما بقية أفراد العائلة لم يصدقوا ذلك، إذ إن الجميع يظن بأن يوسف قد أكله الذئب، ولذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾(يوسف:٩٥).

إذن ما جاء في القرآن موافق للمنطق العلمي وللمكتشفات الجديدة ولا يناقضها أبدًا، وإذا تذكرنا بأنه قبل آلاف السنين لم يكن هنالك أي تلوث، فإن أي رائحة مميزة ستنتشر بشكل أفضل من انتشارها في عصرنا هذا الذي غلب عليه التلوُّث في الهواء. وإذا علمنا أيضًا أن العلماء يؤكدون على قدرة الإنسان على تذكره الروائح لفترات طويلة من الزمن، وإذا تذكرنا ما يقوله العلماء حول تأثير هذه الروائح على السلوك الإنساني، فيمكننا عندها أن ندرك علاقة رائحة القميص بتذكر الوالد لولده من قصة سيدنا يوسف ورجوع بصره إليه فرحًا بهذه البشارة.

إن دماغ الإنسان يقرأ الروائح كما يقرأ الرسائل المكتوبة، أي إن سيدنا يعقوب كان ينتظر هذه الرسالة ليتعرف من خلالها أن ابنه لا زال حيًّا يُرزق، وبالتالي ستكون سببًا في رد بصره إليه، قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، لأن سيدنا يعقوب عليه السلام قد وجد فعلاً هذه الرائحة، وتعرَّف عليها جيدًا، لأنه كان يبحث عنها طوال سنوات، وهذا يدل على الثقة الكبيرة لسيدنا يعقوب بهذه الرائحة، وأن يوسف لا يزال حيًّا. ■

(*) باحث في الإعجاز العلمي والرقمي في القرآن والسنة / سوريا.

هطول

تسيرُ السُّحْبُ في هذا الفضاءِ
مُغامَرَةً، تَطولُ بغير ماءِ
وقدْ خطَّ الإلهُ لها خُطوطًا
فتهْبِطُ في هدوءٍ واستواءِ
وَمِنْ طَبَقٍ إلى طَبَقٍ توالتْ
إلى حِجْرِ الغلاف من السماءِ
وتنقلُ رحمةَ الرحمن خيراً
فتخضرُّ القلوبُ بذا الرِّوَاءِ.

***

عثمان أقجه*

> لا قيمة للصفر بحد ذاته، ولكن إنْ وضعنا إلى جانبه رقمًا، صار له قيمة. تخلّ عن دعوى الأنانية، صَفِّر نفسك، ودع خالق الأرقام يضع الرقم الذي يريد إلى جانبك.
>
> الموازين

بولندا..
أو حين تنتج الأزمة مشروعا

ولـدت "ماريـا سكلودوفسـكا" (Maria Skłodowska) في نوفمبر ١٨٦٧ في مدينة وارسو عاصمة بولندا. كانت ماريا خامسة خمسة من الأولاد، وكان أبواها يعملان في التربية والتعليم، لكـن تربيـة خمسـة أولاد أجبرت والدتهـا على ترك وظيفـة التدريس للتفرغ إلى تربية الأولاد. كان والدها يدرِّس الفيزياء والرياضيات، ولكن فصل من عمله بسـبب دفاعه عن القيم البولندية وإبدائه لآرائه في أماكن مختلفة ضد روسيا القيصرية التي كانت تحتل مدينة وارسو حينذاك.

بعـد فتـرة مـن الزمـن تعرَّضـتْ أسـرة ماريا لأزمـة ماليـة.. وعندما بلغت

الخامسة من العمر فقدت أختها الكبرى، وبعد أختها بثلاث سنوات فقدت أمها. لكن هذه الأحداث أدت إلى تماسك باقي أفراد الأسرة أكثر من ذي قبل. تعرفت ماريا على الأدب والأدوات المخبرية من خلال والدها؛ حيث كان يقرأ الأدب الكلاسيكي عليها وعلى إخوتها مساء كل سبت، وكان يملك أدوات مخبرية يجري بها تجاربه العلمية، مما شجع ماريا على دراسة العلوم وممارستها عن قرب.

أتمت ماريا دراستها الإعدادية والثانوية بسهولة، ولكنها وجدت أبواب الجامعات موصدة أمامها ككل فتيات بولندا. إلا أنها لم تقطع الأمل في ممارسة التعليم والتعلُّم، فالتحقت بالجامعة الجوالة. هذه الجامعة كانت غير رسمية، وكانت تعقد فصولها خفية كل ليلة في أماكن مختلفة بعيدة عن أنظار المسؤولين الروس. فقد كان المدرسون يعلِّمون الجيل الجديد دون أي مقابل في جامعةٍ تجوب المناطق وتنتقل من بيت إلى بيت تحت جنح الظلام.

هذا النظام اكتشفه البولنديون وطوروه ببصيرة ثاقبة وفراسة مذهلة، وبالتالي طبقوه بجوٍّ ساد فيه روح الوفاق والوئام. كان المحتلّ الروسي يهدف إلى قمع الشعب البولندي وإبعاده عن ثقافته وقيمه ليظلّ جاهلاً عديم المعرفة، غير أن البولنديين رأوا مستقبلهم في تحصيل العلم والمعرفة، وفي الحفاظ على تراثهم الثقافي والقيمي.. كانوا على وعي تام بأن هذا الدرب طويل ومفعم بالمحن والمشقات، فساروا على درب العلم وراحوا يتعلمون الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والتاريخ والأدب والموسيقى سنوات طويلة، بصبرٍ على التنقل من مكان إلى مكان.

كانت الفتيات تشكل ٧٠٪ من الدارسين في هذه الجامعات. وبين عامي ١٨٨٣-١٩٠٥ أتمت ثلاثة آلاف طالبة الدراسة وحصلت على الشهادة من تلك الجامعات المتنقلة، علمًا بأن المدرسين المتطوعين كانوا يهتمون بمنح الطالبات الشهادات الدراسية والدرجات العلمية، حتى إنهم كانوا يقومون بترتيب الحفلات ليقدموا الجوائز للمتخرجين. وفي عام ١٩٠٥، صارت الجامعة المتنقلة شبه رسمية أطلق عليها اسم "اتحاد مراكز العلوم" (Towarzystwo Kursów Naukowych).

شحذت الجامعة المتنقلة همة ماريا أكثر، حيث قررت مع أختها الكبرى "برونيا" (Bronya) أن يسافرا إلى باريس لإكمال الدراسة العليا هناك. وهكذا اتفقتا على أن تعمل ماريا أولاً وتتحمل نفقة تعليم أختها "برونيا" حتى تكمل دراستها، ثم تعمل "برونيا" نفس الشيء بعدما تنتهي من دراستها. فبدأت ماريا تعطي دروسًا خاصة لأبناء صاحب مصنع سكر يبعد عن مدينة وارسو بـ١٥٠ كم، إضافة إلى تدريسها أبناء العمَّال مجانًا في أوقات الفراغ هناك. كانت ماريا على يقين أن ما تقوم به يشكل خطرًا عليها من قبل الروس، ولكنها واصلتْ عملها دون مبالاة لهذه المخاطر، بل كانت تنكب على الكتب بعد التدريس وتذاكرها حتى الصباح.

بعد فترة وجيزة بدأت أحلام ماريا تتحقق واحدة تلو الأخرى؛ سافرت أخيرًا إلى باريس لإكمال دراستها الجامعية، وسكنتْ هناك حجرة صغيرة في سقيفة أحد المنازل. كانت تقضي جُلَّ وقتها في المكتبات العامة، تبقى فيها إلى ساعات متأخرة توفيرًا لمصاريف التدفئة في سكنها. كان طعامها عبارة عن خبز بالزبدة مع الشاي، مما كان يؤدي في معظم الأحيان إلى تدهور في حالتها الصحية، ورغم كل ذلك، لم تتوقف ماريا عن المذاكرة والدراسة. وبعد هذه المرحلة الصعبة قررتْ أن تنذر حياتها للعلم كليًّا. وشاءت الأقدار أن تلتقي بشاب يدعى "بيري" (Pierre)، تزوَّجا وصار بيري شريكها في الدراسة والاختبارات العلمية.

حصلتْ ماريا عام ١٩٠٣ على جائزة نوبل في الفيزياء لإسهامها في مجال الموجات الراديوية، وكانت بذلك أول سيدة تحوز على هذه الجائزة في العالم. واشتهرتْ بعد ذلك في أرجاء المعمورة باسم "ماري كري" (Marie Curie)".

وفي سنة ١٩١١ حصلت على جائزة نوبل مرة ثانية، ولكن هذه المرة لإسهامها في مجال الكيمياء، حيث

hiragate.com

اكتشفت عنصرين كيمائيين جديدين، وهما الراديوم والبولونيوم.

عندما تتحدث ماري كري عن أيام دراستها في بولندا تقول: "كنتُ في مجموعة من الشباب الذين آمنوا بأن مستقبل البلد مرهون ببذل الجهود والطاقات للحفاظ على الموروث الثقافي ورفع المعنويات لدى أبنائنا. كنا نلتقي لندرِّس بعضنا بعضًا فيقدِّم الواحد منا ما بجعبته من علمٍ إلى الآخر، وهكذا بدأنا المسير".

كانت الجامعة المتنقلة واحدة من الوسائل التي أوجدها الشعب البولندي لمكافحة الغزو الفكري الروسي. وفي نهاية المطاف انتشرت فعاليات التعليم بين شرائح كثيرة من المجتمع، وأصبح التعليم الذاتي، نشاط ثلث الشعب البولندي رغم الاحتلال الروسي في بداية القرن العشرين.

صنَّف البولنديون كتبًا للتعليم الذاتي بمشاركة أعلام ورجال علم وفنانين.. وكانت المكتبات العامة بمثابة مقر للشعب من كل الفئات، بيد أن هذه المكتبات أيضًا لم تَخْل من المخاطر؛ إذ كانت الكتب تُسرق، أو تغلق المكتبات بحجة احتوائها على كتبٍ لكتَّابٍ اعتبرتْها السلطات الروسية غير شرعية، مثل "فيكتور هوغو" و"أميل زولا" و"ألكسندر دوماس".. إلا أن النشاط التعليمي كان مستمرًّا في البيوت والمنازل بكل جدّية من الطلاب والأساتذة رغم المراقبة والتفتيش الشديدين.

لقد ثابر البولنديون على التعليم وأخذت دائرة التعليم تتوسع داخل البلاد وتنتشر، حيث كان المثقفون والشباب يلتقون في أماكن مختلفة خارج البلد ويتنفسون هنالك عبق الحرية. وأصبحت باريس إحدى المراكز التي وجدت الثقافة البولندية فيها ملاذًا في بداية القرن التاسع عشر. وهناك تربى كثير من الشعراء والأدباء والمؤرخين المرموقين، منهم الملحن العالمي الشهير "فريدريك شوبان" (Frédéric François Chopin).

لقد أسهم الاحتلال الذي عانت منه بولندا إلى رفع مستوى الوعي في المجتمع، حيث أدرك الجميع أن ثمة أمورًا لا بد من الحفاظ عليها، وبهذا الوعي تحمل

استطاع البولنديون أن يحوِّلوا حتى معسكرات الاعتقال النازية إلى مدارس تعليمية تربوية، حيث سعى المدرسون المتطوعون إلى إيجاد طرق مبتكَرة لتدريس المعتقَلين السجناء.

الأفراد مسؤولياتهم، وراحوا يؤدون واجبهم تجاه شعبهم ووطنهم. ولعل ما يمكن استخراجه من كل ما ذُكر، أن تَعرُّض بولندا للاحتلال والضغوطات الخارجية، ولَّد في أبنائها الاهتمام بالتراث والقيم النبيلة، حيث لم تستطع الضغوطات الداخلية أن تقضي على شجرة الضمير الواعي لدى هذا الشعب، بل ضربت هذه الشجرة جذورها في الأعماق، ونشرتْ أغصانها في كافة أرجاء المعمورة.

اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وتغيرت الظروف، حيث احتاج المحتلون إلى الدعم السياسي البولندي، الأمر الذي جعلهم يسمحون بنشر الثقافة البولندية في الجامعات والمدارس، وبعد فترة وجيزة أعلنت بولندا استقلالها عام ١٩١٨.

لكن بعد عقدين من الزمن، في سبتمبر ١٩٣٩، نشبت الحرب العالمية الثانية، وغزت ألمانيا النازية بولندا، وعاد الضغط والقمع على التعليم والمدارس من جديد، حيث أطلق هتلر كلمته الشهيرة قائلاً: "يكفي هؤلاء البولنديين أن يتعلموا حروف أسمائهم فقط، وأن يتعلموا العدَّ إلى الـ٢٠٠ فحسب، وأن يعتبروا أوامرنا دستورًا إلهيًّا مطاعًا".

لم تكن ردود أفعال البولنديين مختلفة عن ذي قبل، بل أعادوا الكرة من جديد وأقاموا مدارس متنقلة غير رسمية في كافة أصقاع البلاد سرًّا وخفاء في السراديب وأسقف البيوت والمباني.. والملفت للنظر أن جهودهم هذه أثمرت ثمارًا أكبر من ذي قبل؛ حيث تجاوز عدد الطلاب في هذه المدارس الخفيَّة أعداد طلاب المدارس الحكومية، ومع حلول عام ١٩٤٤، ورغم المراقبة

hiragate.com

النازية الشديدة، وصل عدد طلاب هذه المدارس المليون والنصف المليون، وبلغ عدد الدارسين في الجامعة المتنقلة عشرة آلاف طالب وطالبة.

وفي هذا الصدد لا بد أن نشير إلى أن البولنديين استطاعوا أن يحوّلوا حتى معسكرات الاعتقال النازية إلى مدارس تعليمية تربوية، حيث سعى المدرسون المتطوعون إلى إيجاد طرق مبتكَرة لتدريس المعتقَلين السجناء. علمًا بأن تلك المساعي والجهود الجنونية في مجال التعليم والتربية، حولت بولندا إلى مدرسة كبيرة يتنفس فيها الإنسان عبق العلم والمعرفة.

تخرّج في هذه الجامعات المتنقلة الكثير من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعدُ أساتذة وجامعيين، مما يدل على روح الكفاح فيهم وعدم اليأس والأمل المستمر والإقبال نحو المستقبل بثقة وعزم وإرادة منقطعة النظير، في وقتٍ كان اليأس قوت الشعب البولندي وغذاءه.

لم يستطع النازيون ولا الروس تحطيم عزيمة الشعب البولندي المتعلم الواعي، العارف بقيمه والمدرك لهويته، مما أدى إلى انهزامهما أمام هذا الوعي الصامد الذي أبداه الشعب البولندي المظلوم.

وما إن بدأ الشعب البولندي يتنفس الصعداء ويشعر بالأمن والأمان، حتى انقض عليه الاتحاد السوفيتي وهيمن على بلاده كرة أخرى. وكعادته، صمد البولندي أيضًا، وأنشأ جيلاً احتذى بأجداده في الحفاظ على موروثه العلمي والثقافي، وظل على هذه الوتيرة حتى انهيار الاتحاد السوفيتي وانقضاء عهده، لتحصل بولندا على حريتها من جديد.

لقد حقق أبناء بولندا إنجازات جبارة خلال القرنين الماضيين، وأكدوا وجودهم بعلمهم ووعيهم ونظرتهم الثاقبة إلى المستقبل، فقد جعلوا من التعليم وسيلةَ دفاعٍ في وجه المعتدي على بلادهم رغم الظروف القاسية التي لا تحتمل. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

بين الزيف والحقيقة

شيئًا، وَلَسْنا -كلَّ شيء- نكتشفْ
فابْحَثْ -أُخَيَّ- عن الدليل الخالدِ
واخضَعْ له، لا تنخدِعْ مِنْ غيرِهِ
كمن اسْتناروا بالضِّياءِ الشاردِ
ذلّوا أمام زوائفِ النور الذي
تاهوا به، ولبئْسَ زَيْفُ العابدِ.

***

السنوسي محمد السنوسي*

الجامعة مختبر الحياة

مثلما يكون للصيدلي أو الكيميائي مختبره الذي يجري فيها تجاربه ويتأكد من مشاهداته وملاحظاته؛ حتى يمكنه صياغة ذلك بدقة في نظرياتٍ قد تفضي لمعادلات وقوانين ثابتة، فإن للحياة مختبرها الذي تصهر فيه الإنسان، وتصقله بالتجارب والخبرات، وتؤهله لما بعد ذلك من مسؤوليات وتحديات وطموحات.

والجامعة هي مختبر مهم من مختبرات الحياة ومعمل كبير من معاملها، التي يمكن للمرء فيها أن يعيد قراءة نفسه واكتشاف قدراته، ويستطيع بها تنمية ذاته وتجديد عقله ومعارفه.

إنها ليست مجرد فترة دراسية يمر بها الشباب بعد مراحل تعليمية تمهيدية، أقل شأنًا وأضيق حدودًا، ولكنها مرحلة لها ما بعدها، وذات أهمية قصوى في تشكيل الشباب وإعدادهم لما يتلوها في معركة الحياة.

ولا يختلف اثنان على أن فترة الشباب هي عصب حياة الإنسان التي تتشكل فيها

الجامعة معمل يتعلم فيه الشاب كيف ينسج علاقات مع الآخرين، وكيف يتواصل معهم، وكيف يشاركهم عقولهم ويشاركونه عقله، هي فرصة مجانية لمدّ شبكة عريضة من التواصل الإنساني.

خبراته، ويتمتع فيها بكامل حيويته وحضوره ولَمَعانه الفكري والعضلي.

وبقدر ما يُراكِم المرء في هذه الفترة من حيوية ونشاط، يمكنه أن يملأ حياته فيما بعدُ إبداعًا وتألقًا، بحيث يكون إضافة للحياة لا عالة عليها.

وتأتي مرحلة الجامعة لتشكل عصب مرحلة الشباب التي هي بدورها -كما أشرنا- عصبُ حياة الإنسان. فالجامعة هي الفترة المكثَّفة المركزة التي ينبغي على كل شاب أن يعطيها عناية خاصة، وأن يفهمها على نحوٍ جيدٍ يتجاوز به كونَها فترة لاستظهار المعرفة وإحراز الدرجات، إلى عَدِّها مختبرًا بالغ الأهمية في صقل الوجدان والعقل، وفي مد شبكات من العلاقات المتينة مع الأقران، وفي الاطلاع على معارف وثقافات متنوعة بجانب التخصص.

لكن للأسف قد تمر تلك الفترة الذهبية دون أن يلتفت الشباب لها كما ينبغي، بل قد يدخلونها دون أن يعرفوا عنها، اللهم إلا أنها عبارة عن مجموعة أوراق ينبغي عليهم أن يحفظوها ليحرزوا تقديرات متميزة، تُفسح لهم مكانًا في سوق العمل أو في قاعات التدريس.

لا، ليست هذه أهمية مرحلة الجامعة فحسب، إننا بهذا التصور نهدر تلك الطاقات الكامنة في هذه الفترة المهمة من حياة الإنسان. الجامعة معمل يتعلم فيه الشاب كيف ينسج علاقات مع الآخرين، وكيف يتواصل معهم، وكيف يشاركهم عقولهم ويشاركونه عقله، هي فرصة مجانية لمدِّ شبكة عريضة من التواصل الإنساني، والنفسُ لم تتعكر بعدُ بما يورثها الشك في الآخرين، أو يكبّلها بالحذر الزائد منهم.

نفوس الشباب صفحة بيضاء، وإمكانيةُ مَلْئِها بالخبرات المتبادلة أمرٌ ميسور، ولهذا كانوا دائمًا أسرع من غيرهم إلى مناصرة الأنبياء، ومؤازرة دعاة الخير والفضيلة، واتباع صوت الحق الصادع.

ويمكن توثيق هذه العلاقات عبر المشاركة في المعسكرات الكشفية، والرحلات التي تنظمها الجامعة. وفصلُ الصيف باب واسع للتزاور وتمتين أواصر المحبة. كما أن فترة الجامعة فرصة ليستنشق الإنسان عبير الثقافات المختلفة، سواء التي تمت بصلة مباشرة لمجال دراسته أم لا، لأن لديه من الوقت ومن صفاء الذهن ما يمكّنه من التجول بحرية وبِنَهم في رحاب مختلف العلوم والمعارف. فلا ينبغي أن يحبسَ الشابُ نفسَه في مرحلته الجامعية داخل نوع معين من المعرفة، بل عليه أن ينفتح ما وسعه الانفتاح، لا سيما في أوائل العام الدراسي وفي إجازة الصيف. يمكنه في فترة الجامعة -وقد لا يتيسر له ذلك لاحقًا بحكم تسارع وتيرة الحياة العملية- أن يطالع الجرائد، وأن يقرأ المجلات، وأن يقوم بزيارات مستمرة لمكتبة الكلية والمكتبات العامة، وأن يكوِّن نواة لمكتبته الشخصية في هذه الفترة، وأن يسجل في مدونته ما ينوي شراءه لاحقًا.. هذا فضلاً عن حضور الندوات العلمية والثقافية المتخصصة والعامة، والتي تمثل زادًا مهمًّا للمعرفة وتوسيع المدارك.

أما النقطة الثالثة التي أحب أن أشير إليها -وقد فاتتني أنا شخصيًّا ولذا أحسُّ بأهميتها- فهي التعوُّدُ على الكتابة خلال المرحلة الجامعية. لا تجعل نفسك -أيها الشاب- في هذه الفترة المهمة من حياتك في موضع "المتلقي" فحسب، بل حاول أن تجرب موضع "المرسِل" وتنشر عبير أفكارك على الآخرين، وثقْ أنها سترتد إليك أفكارًا مضاعفة وأكثر دقة وحيوية.

دَوِّنْ مشاهداتك وملاحظاتك، تابع أفكارك وطوِّرها، تعلَّمْ فنون الكتابة ولو أن تبدأ بتسجيل خواطرك اليومية، تواصل مع منافذ النشر المختلفة واطلب من أصدقائك أن يمدوك بملاحظاتهم واستفد منها.

الجامعة -باختصار- فرصة لتفجير طاقاتٍ كامنة في نفسك، لو لم تكتشفها في هذا الفضاء الخصب، فربما فاتت سنواتٌ حتى تعرفها، وربما لم تعرفها أبدًا. ■

(*) كاتب وباحث، وسكرتير تحرير مجلة التبيان / مصر.

hiragate.com

تربية

د. ناصر أحمد سنه*

مرحلة الشباب الباكر
كيف نتعامل معها؟

مرحلة الشباب الباكر تقع بين الثاني عشرة، والحادية والعشرين من عمر أبنائنا، وفيها تدرج واقتراب من النضج البدني والنفسي والمعرفي والسلوكي، وهي مرحلة طبيعية تنتقل بالطفل من الاعتماد الكلِّي على الآخرين، إلى شخص مستقل مكتف بذاته يعتمد على نفسه، لكنها ليست تمام النضج، إذ لا يصل المرء إلى تمامه إلا بعد سنوات يكتسب خلالها بعض أو كل الخصائص التالية:

• رغبة قوية في إثبات الذات مع شعور بالنضج العقلي والفكري، وبروز شحنة بدنية قوية وقفزة سريعة في النمو البدني والفسيولوجي مع الاهتمام بالجنس الآخر.

• شحنة روحية وقيمية وخلقية صافية وقد تنزع للمثالية، وذلك توازيًا مع شحنة نفسية ووجدانية واجتماعية متوازية مع بقية الجوانب. وللتحولات

ينبغي مقاربة مراحل النمو وفقًا لخصائص كل منها، وتفرض خصائص هذه المرحلة حاجات مُلحة، هي الحاجة لإثبات الذات، والحاجة إلى الحب والأمان والاحترام والتوجيه الإيجابي والشعور بالمكانة الاجتماعية.

الهرمونية والتغيرات الجسدية تأثير قوي على الصورة الذاتية والمزاج العاطفي والعلاقات الاجتماعية.

• القابلية الشديدة للاستهواء والتقليد، واتساع الخيال، والتوحد مع قدوات صالحة أو طالحة، وتقمص أو تقليد الأبطال التاريخيين وأبطال القصص والروايات، والنماذج الإعلامية والفنية والرياضية.

عوامل مؤثرة في التكوين

ينبغي مقاربة مراحل النمو وفقًا لخصائص كل منها، وتفرض خصائص هذه المرحلة حاجات مُلحة، هي الحاجة لإثبات الذات، والحاجة إلى الحب والأمان، والحاجة إلى الاحترام، والحاجة للتوجيه الإيجابي، والحاجة للشعور بالمكانة الاجتماعية.. كما أنها تتأثر بما مر به الشاب من خبرات سابقة. فكل مرحلة سوية سليمة خالية من الصعوبات، تترادف مع سابقتها التي تتسم بنفس الصفات، ومن سماتها أنها تختلف فيما بين الأفراد والمجتمعات والثقافات. كما أن عدم التناغم والتناسق والتوجيه السليم للتعامل مع تغييرات هذه الفترة -فضلاً عن التأثير السلبي للعوامل التربوية/البيئية المحيطة به- قد يُسفر عن شعوره ببعض الارتباكات، مثل:

أ- الارتباك الداخلي: ويكون بين رواسب ما كان، ومتطلبات ما هو كائن.. بين استقلاله وكونه ما زال معتمدًا على أسرته.. بين تذبذب هويته وانتماءاته وقيمه وبين ترسيخها.. بين ضبابية الهدف والطموحات الزائدة والتزامات قاصرة وبين إلحاح غرائز داخلية وقيم وأخلاق وضوابط دينية ومجتمعية، وصراع بين تفكير ناقد لذاته وأطر مجتمعه.. ارتباك بين ثقافة جيله وثقافة الجيل السابق.

ب- الانعزال والتمرد: يشكو من أن والديه لا يفهمانه، فيحاول الانسلاخ عن مواقفهما وسلطتهما فقط كوسيلة لإثبات تفرده. ويرى أي سلطة فوقية، استخفافًا بقدراته العقلية النامية، لذا فقد يشعر بالعزلة عن الأسرة والمجتمع، مفضلاً الانفراد بذاته يتأمل أحواله، فضلاً عن شعوره بتنامي الفراغ الذي يعانيه.

جـ- الخجل والانطواء: يظهر من خلال احمرار الوجه وتلعثم النطق والتضارب بين التدليل، والخوف الزائد عليه يؤدي إلى شعوره بالاعتمادية على الآخرين، بيد أن طبيعة مرحلته تتسم بالاستقلالية والاعتماد على النفس، فيلجأ إلى الانطواء والخجل.

د- العصبية وحدة الطباع: يرغب في تحقيق مطالبه الخاصة دون اعتبار للمصلحة العامة، فيتوتر بشكل قد يسبب إزعاجًا للمحيطين به، وقد يتسم سلوكه بمظاهر حادة لفظًا وفعلاً كالصراخ، والقسوة، والجدل العقيم، والتورط في المشاكل، والضجر السريع، والتأفف من الاحتكاك بالناس، وتبرير التصرفات بأسباب واهية، والنفور من النصح، والتمادي في العناد.. فالمستويات الهرمونية المرتفعة خلال هذه المرحلة مع تأثير الوراثة والتربية والبيئة، تؤدي في مجملها إلى تفاعلات مزاجية على شكل غضب وإثارة وحدة طبع عند الذكور، وغضب واكتئاب وانعزال عند الإناث.

هـ- ارتباك الغريزة ومشكلة الجنس: ليس في مجتمعاتنا العربية الإسلامية مشكلة الجنس، لكن المشكلة قد تنشأ من زيادة المثيرات الخارجية الخليعة، وشيوع الثقافات المتحللة من ضوابط الأخلاق، وعدم شغل أوقات الفراغ بما هو مفيد، وضعف التوجيه الأسري والتربوي، والعقبات الاقتصادية التي تؤخر الزواج.

هذا وإن أهم متاعب هذه المرحلة، تتأتى من الخوف الزائد على الأبناء من الفراغ وأصدقاء السوء، ومن عدم قدرتهم على التمييز بين الخطأ والصواب باعتبارهم قليلي الخبرة في الحياة، حيث يرفضون النصح ويطالبون بالمزيد من الحرية والاستقلال محاولين الانفصال عن الأسرة والمجتمع بشتى الطرق. ولم يكن التحول البيولوجي الذي يدخل فيه الولد هو السبب الوحيد في ظهور مشكلات هذه المرحلة، وإنما لتداخلها مع الظروف الثقافية والتربوية والاجتماعية

hiragate.com

المحيطة. فصورة الشاب في المناطق الحضرية تختلف عنها في المناطق الريفية والبدوية؛ ففي الأولى يستمر الاعتماد على الأبوين مدة أطول ريثما يُتمم الولدُ تعليمه ويحصل على عمل يؤهله لبناء أسرة مستقلة، بينما في الثانية ينضم الشاب سريعًا لزمرة الكبار، ويجد عملاً، ويُسمح له بالزواج وتأسيس أسرة بمجرد اشتداد عوده.

إن معظم مشكلات هذه الفترة، تنشأ بسبب إحجام الأبناء والبنات عن الحوار والتفاعل مع أولياء أمورهم، ظنًّا بأن أولياءهم يرغبون في تسييرهم وفق آرائهم وعاداتهم وتقاليد مجتمعاتهم.. بيد أن الشباب في الأسرة المتماسكة، ذات الروابط التربوية القوية التي يحظى أفرادها بالترابط واتخاذ القرارات المصيرية في مجالس عائلية محببة يشارك فيها الجميع، ويهتم جميع أفرادها بشؤون بعضهم البعض، هم الأقل شعورًا بضغوط هذه المرحلة، والأكثر إيجابية في النظرة إلى الحياة.

التوجه نحو سلوك الراشدين

الشاب إذا تصرف كطفل سخر منه الكبار، وإذا تصرف كرجل انتقده الرجال، مما يؤدي إلى خلخلة توازنه النفسي، لذا فمساعدته وتهيئته لهذه المرحلة أمر في غاية الأهمية، وذلك عبر بعض النقاط التالية:

١- إعداده أسريًّا وتربويًّا لهذه المرحلة، إذ أصبح ناضجًا ومسؤولاً عن تصرفاته واختياراته، فيتم البدء من توعيته بمرحلة التكليف والحساب أمام الله تعالى، ويُحثُّ على ترجمة القيم الدينية والأخلاقية على سلوكه وتصرفاته في الحياة، ويوكَل إليه مهمات يؤديها بثقة من قدراته واستقلاله.

٢- إعلامه بأن تغيرات بدنه تُعدِّه إلى التأهل في مهمته الحياتية؛ فهو لم يعد طفلاً، بل أصبح مسؤولاً مستقلاً له دور في الحياة. وإشاعة روح الشورى فيه، فيؤخذ رأيه ليدرك أنه مُعتبر الرأي والقيمة، وليُدرَّب على عرض رأيه بصورة منطقية.

٣- ترسيخ طاعة الله ورسوله وحسن العبادة وطاعة الوالدين، وجعل البيئة التي ينشأ فيها، تؤثر تأثيرًا إيجابيًّا في تربيته عقيدة وعبادة وسلوكًا. فالأب والأم والمربي والمعلم يشاركون مشاركة فعَّالة في تقوية إيمانه، وفي مد جسور التواصل مع أهل الخبرة والصلاح في المحيط الأسري وخارجه، وذلك لإشعاره بالأمان والحب والعدل والاستقلالية والحزم.

٤- فهمه ومنحه الدعم العاطفي وقدرًا من الحرية المنضبطة، واحترام استقلاليته وأفكاره وآرائه ومواقفه وتجنب الانتقاد أمام الآخرين وبث الأمل فيه، ومحاورته كأب أو كأمّ حنون ومحادثته كصديق، واختيار الوقت المناسب للحوار معه والوصول إلى قلبه وعقله عبر التشجيع المُؤدي لتحسين مستوى التحصيل العلمي والتعليمي والتربوي.

٥- تشجيعه على ممارسة رياضة يحبها، استنفادًا للطاقات وشغلاً للفراغ، وممارسة لمفهوم التسامح والتعايش، وتوسيع حقول التوافق، وبناء جسور التفاهم في محيط الأندية الرياضية والثقافية.. كذلك استثمار أوقات فراغه بما يعود عليه بالنفع، وتشجيعه على القراءة والاطلاع لتساعده على تحسين سلوكه ومهاراته وتنمية تفكيره الإبداعي.. استثمار هذه المرحلة بتوظيفها لصالحه ولصالح أهله ومجتمعه وبلده.

٦- عدم تركه ليفعل ما يريد وكيفما يريد ووقتما يريد ومع من يريد، وإنما يجب أن يعي أن كما له من حقوق فإن عليه واجبات يجب أن يؤديها، وأن مثل ما له من حرية فللآخرين حريات يجب أن يحترمها.

٧- إجادة فن معاملة الأم مع ابنتها، وإعلامها أنها تنتقل لمرحلة التكليف والمسؤولية عن تصرفاتها، ويؤخذ رأيها فيما يخصها، وتعليمها الأمور الشرعية الخاصة بها، مع إقامة علاقة وطيدة معها لفهم كيف تفكر، وماذا تحب وتكره.

خلاصة القول: أبناؤنا وبناتنا فلذات أكبادنا، عُدَّة الأمة ودعامتها وحاضرها ومستقبلها، وهم بحاجة لفهم مراحل أعمارهم، ليحسُن تربيتهم وتنشئتهم بما يقوي ويحمي مجتمعاتنا ويحقق غاياتنا وآمالنا. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

الإخراج الفني
أحمد شحاتة
ياووز يالمز

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-65

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
هاتف: +20123201002 - +201066067034
hirasubscription@gmail.com

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

IRAQ
Kani İrfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211

كيف نفهم **روح القرآن؟**

كيف نحسن تنزيل **معانيه الخالدة** إلى حياتنا المعاصرة؟

مدخل إلى **عالم القرآن الذهبي..**

كتاب جديد

للأستاذ فتح الله كولن

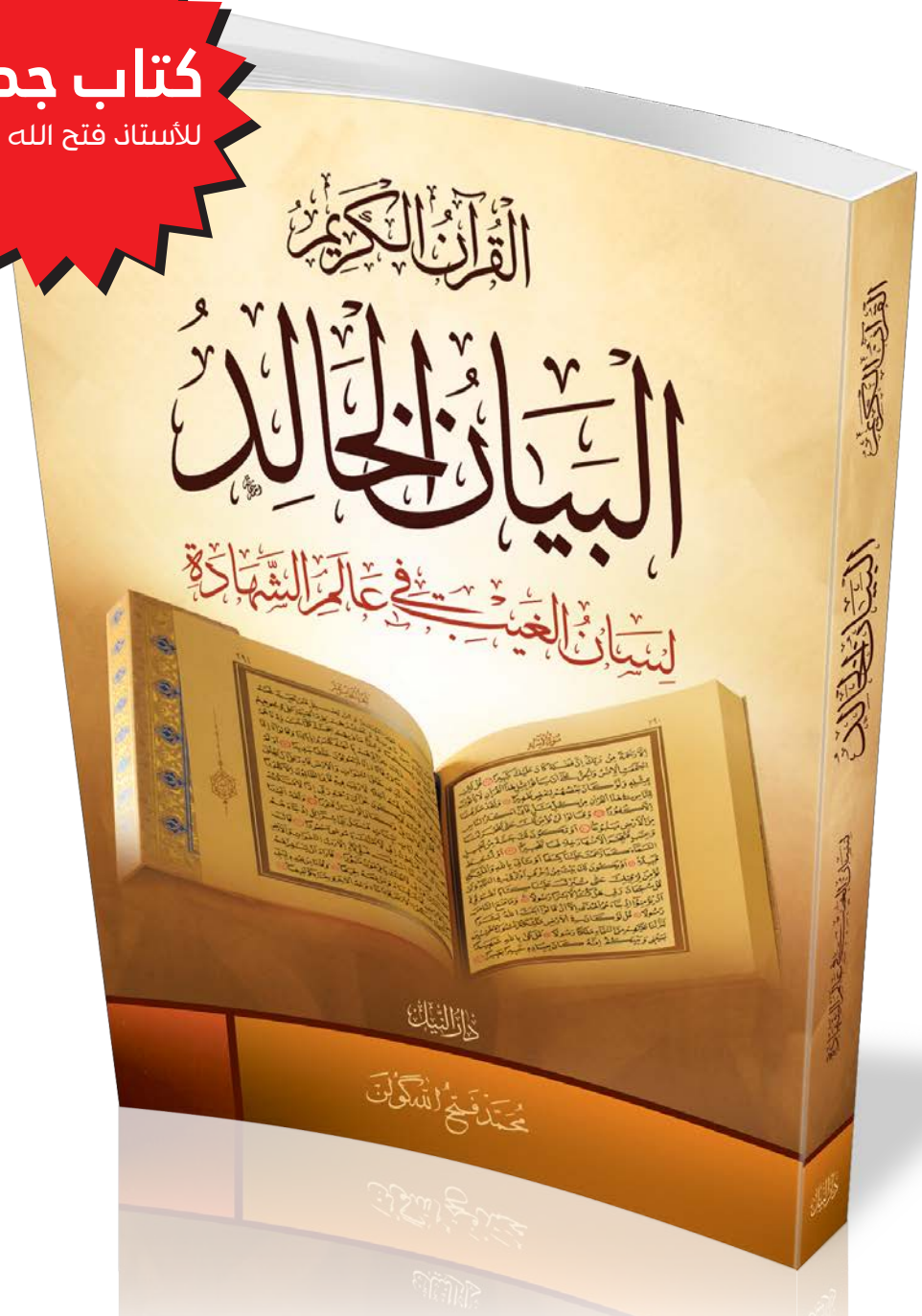

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002

مركز البيع الإلكتروني: www.souq.com

مركز البيع المجلد العربي: 01275470090 | **دار أصول الدين:** 01115534566

جوامع الكلم: 01150726663 | @daralinbiath | @daralinbiath

حـراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

سلوان

أقدارُنا تغدو كَسَيْلٍ جارفٍ
وتصيرُ مَوْجًا دون حُزْنٍ أو ألـمْ
والناسُ قد وُلِدوا فُرادى مثلما
قد يرحلونَ، فلا تَلَفُّتَ للعدَمْ
لا تكترثْ بأذاهُمُ، لا تلتفِتْ للمشتكي
قُلْ في مُضِيِّكَ: بالعزيمةِ أَغْتَنِـمْ
قَدَري يَقينِي، ما السلامةُ حَوْلَهُ
مِنْ كل بَلْوَى للنفوسِ سِوَى الكَرَمْ.

***

ISSN 2357-0229 65
9 772357 022004
www.hiragate.com